مثلا[١] : « قال أبو جعفر : يعنى بقوله جلّ ثناؤه واستعينوا بالصَّبر استعينوا على الوفاء بعهدى الّذى عاهدتمونى فى كتابكم من طاعتى واتّباع أمرى وترك ما تهوونه من الرّئاسة وحبّ الدّنيا إلى ما تكرهونه من التّسليم لأمرى واتّباع رسولى محمدّ ﷺ بالصّبر والصلاّة » وجاء فى الجلالين : « وقيل الخطاب لليهود » ويقول أبو حيان[٢] . « والّذى يظهر أنّ ذلك كلّه خطابٌ لبنى إسرائيل لأنّ صرف الخطاب إلى غيرهم لغير موجبٍ ثَمَّ[٣] يخرج عن نظم الفصاحة » وهذا معناه أنّ ثمّة رأيين تجاه الخطاب هنا . فمن العلماء من ذهب إلى كونه موجّهاً إلى المسلمين ومنهم من ذهب إلى كونه موجّهاً إلى أحبار اليهود . ونحن نودّ من جانبنا أن نبيّن رأينا فى هذه المسألة .

إنّ المتأمل للآيات الكريمات الّتى تبدأ بمخاطبة بنى إسرائيل يستطيع أن يتبيّن أنّ الثّلاث الآيات الأُول خاصّةٌ ببنى إسرائيل مقصورةٌ عليهم . قال تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى الّتى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإيّاى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدِقاً لما معكم ولا تكونوا أوّل كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإيّاى فاتّقون . ولا تَلْبِسوا الحقّ بالباطل وتكتمو الحقّ وأنتم تعلمون ﴾ وإنّما ذهبنا إلى كون هذه الآيات خاصّةً ببنى إسرائيل لأنّها تنطبق عليهم تمام الانطباق إضافةً إلى ابتداء الآية الأولى بخطاب القوم . فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة الرّابعة . قال تعالى : ﴿ وأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة واركعوا مع الرّاكعين ﴾ صادفنا أمر القوم بالرّكوع فى صلاة الجماعة . والثّابت علميّاً ومن الواقع المشاهد أنّ اليهود لا ركوع فى صلاتهم . وعليه يصحّ أن يتّجه الخطاب فى الآية الكريمة إلى بنى إسرائيل المصلّين مع المسلمين ، وهذا معناه أنّ بنى إسرائيل اعتنقوا دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده وآمنوا بالرّسول الكريم وبالقرآن العظيم وطّبقوا شعائر الإسلام وفى مقدّمتها الصّلاة والزّكاة ، كما يصحّ أن يتّجه الخطاب إلى عامّة المسلمين . وعليه نكون أمام الآية بصدذ منعطف يتّجه فيه الحديث

---

(١) تفسير الطّبرى ١/٢٠٤ (٢) البحر المحيط ١/١٨٥

(٣) ثَمَّ وثمّة بفتح الثّاء فى كليهما : اسمٌ يشار به إلى البعيد بمعنى هناك .

إلى بنى إسرائيل كما يتّجه إلى سواهم . بل لعلّ الغالب أنّه يتّجه إلى غير اليهود أعنى المسلمين لأنّ الرّكوع أحد أركان الصّلاة عند المسلمين ولا ركوع أساساً عند اليهود . فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية : ﴿ أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسَوْن أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ ؟ تبيّنّا أنّ حظّ غير اليهود من الخطاب هنا لا يكاد يقلّ عن حظّ اليهود . فالآية الكريمة تجرى مجرى المثل الّذى يستعمل فى حقّ الّذى يأمر سواه بالخير وعمل الصّالحات وينسى نفسه فلا يأمرها بالخير ولا ينهاها عن الشّرّ ، ويفعل غير ما يقول ويأمر به الآخرين . وقد جاء فى سورة الصّفّ خطاباً للمؤمنين قوله تعالى[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وقد تبيّنّا أنّ هذه المعانى السّامية مصدر إلهام لفريقٍ من رجالات الإسلام .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . ﴿ واستعينوا بالصّبر والصّلاة وإنّها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين ﴾ تبيّنّا أنّ هذه التّعاليم ، فى حقّ بنى إسرائيل الّذين لم يعتنقوا الإسلام ، والمعروف أنّ عدد الّذين أسلموا وظفروا بصحبة المصطفى ﷺ تسعةٌ وثلاثون شخصاً[2] بعيدةٌ كلّ البعد عنهم . وهى تصحّ فى حقّ أولئك الّذين تحوّلوا مسلمين لله رب العالمين ، ومن ثمّ يصحّ أن يتّجه الخطاب إلى هذه الفئة التى أصبحت مسلمة ، ومن باب أولى يصحّ أن يتّجه الخطاب إلى المسلمين ، بل إنّا نميل بشدّة إلى كون الآية الكريمة إنّما تخاطب المسلمين لله ربّ العالمين وحدهم من أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ آمرةً لهم بالتّحلّى بصفتين من أهمّ صفات المتّقين ، أن يستعينوا بالصّبر ، وأن يستعينوا بالصّلاة الّتى يطلب منهم أن يكونوا فى أثناء أدائها خاشعين .

وإنّ التّحوّل فى الخطاب من بنى إسرائيل إلى المسلمين لله رب العالمين فى الآية الكريمة ، والتّحوّل من قضيّته إلى قضيّة أخرى من جنسها أو إلى قضيّة أخرى فى اتجاهها ومسعفةٍ لها على تحقيق هدفها ، لهو إحدى وسائل القرآن الكريم فى منهجه التّربوىّ . إذ ليست هذه هى المرّة الوحيدة الّتى يتمّ فيها التّحوّل من جماعة إلى أخرى من مسألةٍ

---

(١) سورة الصّفّ ٢ ، ٣ .

(٢) السّيرة النّبويّة للسيّد أبى الحسن على الحَسَنى النّدوى ص ١٦١

إلى مسألةٍ أخرى . بل إنّ ثمّة العديد من المواضع فى القرآن الكريم الّتى يتمّ فيها مثل هذا التّحوّل لأغراض بيانيّة وأهدافٍ معنوية . ففى سورة البقرة مثلاً ، وفى أعماق الحديث عن الطّلاق وأحكامه ، وفى غمرة الحديث عن حقوق المطلّقة والحث على العفو وعدم نسيان الفضل بين الزّوجين ، يجئ الأمر بالمحافظة على الصّلوات ، لأنّ الصّلاة عماد الدّين ، ولأن الزّوجين بخاصّة ، أمسُّ خلق الله تعالى حاجةً ــ فى ذلك الظّرف العصيب الّذى تمرّ به العلاقة الزّوجيّة الّتى بدأت تهبّ عليها تباعاً العواصف الهوج ــ للإقبال على الله تعالى والخشوع له والتّضرع إليه ، فى الصّلاة بخاصّة ، فلعلّ رحمة الله سبحانه وتعالى أن تشملهما وأن تنتشل حياتهما الزّوجيّة المهدّدة بالانفصام من الوهدة الّتى تنحدر فيها . قال تعالى .[1] : ﴿ حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ وفى أثناء حديث سورة آل عمران عن غزوة أحد الّتى شاء الله تعالى أن ينهزم فيه المسلمون أخيراً بعد أن تمّ لهم النصّر أوّلاً ، والّتى استشهد فيها من المسلمين سبعون جاء الحديث فى الرّبا ناهياً المسلمين عن أكله أضعافاً مضاعفة آمراً لهم بتقوى الله . قال تعالى[2] : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا الرّبا أضعافاً مضاعفةً واتّقوا الله لعلّكم تفلحون . واتّقوا النّار الّتى أعدّت للكافرين . وأطيعوا الله والرّسول لعلّكم تُرحمون ﴾ وفى أثناء حديث سورة هود عن جدل قوم نوح عليه السّلام معه وتبجّحهم بالطّلب أن يأتيهم بعذاب الله تعالى الّذى يعدهم به ، يجيء الحديث فى آية كريمة واحدة عن القرآن الكريم وموقف كفار مكّة من الكتاب العزيز ومن المصطفى ﷺ ، ذلك الموقف الّذى يشبه موقف قوم نوح عليه السّلام منه فاستحقّوا أن يغرقهم الله تعالى وألاّ يبقى منهم دَيّارا ، فلعلّ فى مصير كافرى قوم نوحٍ عظةً واعتباراً لكفّار قريش . قال تعالى[3] : ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنا برئٌ ممّا تجرمون ﴾[4] وفى سورة يوسف حينما يسأل الفتيان فى

---

(١) سورة البقرة ٢٣٨ ، ٢٣٩ (٢) سورة آل عمران ١٣٠ ــ ١٣٢ .

(٣) سورة هود ٣٥ .

(٤) انظر مثلاً حديث ابن كثير فى تفسيره ١/٤٤٤ عن هذه الآية الكريمة المعترضة .

السّجن يوسف عليه السّلام ، الذى وجداه من المحسنين ، أن يعبرّ لهما الرؤيا التى رآها كلّ واحدٍ منهما ، دعاهما يوسف عليه السلام بين يدى تعبيره،الّذى يعتبره الفتيان هدفاً لهما وغاية ، إلى توحيد الله تعالى وعبادته عزّ وجلّ وحده لا شريك له ، لأنّ الدّعوة إلى توحيد الله تعالى هدف يوسف عليه السّلام الأسمى وغايته العظمى . لقد اتّخذ عليه السّلام من هدفه الأسمى وهو الدّعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، الّتى يعتبرها الفتيان وسيلةً لغايتهما من تعبير الرّؤيا ، اتّخذ عليه السّلام من هدفه الأسمى توطئةً لتعبير الرُّؤيا . قال تعالى[1] : ﴿ ودخل معه السّجن فتيان ، قال أحدهما إنّى أرانى أعصر خمرا ، وقال الآخر إنّى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطّير منه ، نبئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلاّ نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما ممّا علّمنى ربّى ، إنّى تركت ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتّبعت ملّة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب . ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون . يا صاحبى السّجن أأربابٌ متفرّقون خيرٌ أم الله الواحد القهّار . ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحُكْم إلاّ لله ، أمر ألاّ تعبدوا إلا إيّاه ، ذلك الدّين القيّم ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون . يا صاحبى السّجن أمّا أحدكما فيسقى ربّه خمرًا وأمّا الآخر فيُصْلب فتأكل الطّير من رأسه . قُضِى الأمر الّذى فيه تستفتيان ﴾ والمعروف أنّ دعوة يوسف عليه السّلام الفتيين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له بين يدى تعبير الرُّؤيا ، تعتبر من المواقف القليلة فى سورة يوسف الّتى أطالت الشّخصيات الحديثَ فى أثنائها .

والحقيقة أنّ كلّ متدبرٍ للآية الكريمة ﴿ واستعينوا بالصّبر والصّلاة وإنّها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين ﴾ يفهم منها أنّه هو المعنىّ بها ، وأنّ كلّ من وجد نفسه فى موقفٍ صعبٍ يجد سلوته وعزاءه فى الآية الكريمة الّتى تجرى على لسانه كالمثل : ﴿ واستعينوا بالصّبر والصّلاة ﴾ وربمّا قرن إلى القول العمل فبادر إلى الصّلاة . وإن المسلم ليجد فى المصطفى ﷺ أسوته عليه السّلام . عن حذيفة بين اليمان قال : كان رسول الله ﷺ

---

(١) سورة يوسف ٣٦ — ٤١

إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[١] وروى أنّ عبد الله بن عبّاس « نُعِى إليه أخوه قُثم وهو فى سفر فاسترجع ثمّ تنحّى عن الطّريق فأناخ فصلّى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثمّ قام يمشى إلى راحلته وهو يقول : واستعينوا بالصَّبر والصّلاة وإنّها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين »[٢] .

لعلّ فى كلّ ما سبق مَقْنَعاً بأن الخطاب فى الآية الكريمة للمسلمين لله ربّ العالمين فى المقام الأول .

واستعينوا : استعان معناه طلب المعونة[٣] أى اطلبوا المعونة على أموركم[٤] .

والصَّبر : الحبس فى اللّغة . وقُتِل فلانٌ صبراً أى أُمْسِك وحُبِس حتّى أُتْلِف[٥] والصّبر حبس النفس على المكروه . والفعل صبر يصبر على فعل يفعل وأصله أن يتعدّى لواحد . قال الشّاعر :

فَصَبَرْتُ عارفةً لذلك حرّةً ترسو إذا نَفْسُ الجبان تطلّع

وقد كثر حذف مفعوله حتّى صار كأنه غير متعدّ[٦] وأصل الصّبر منع النّفس محابّها وكفُّها عن هواها ولذلك قيل للصّابر على المصيبة صابر لكفّه نفسه عن الجزع ، وقيل لشهر رمضان شهر الصّبر لصبر صائمه عن المطاعم والمشارب نهارا[٧] .

وإنّها : الضّمير عائدٌ على الصّلاة . هذا ظاهر الكلام ، وهو القاعدة فى علم العربيّة أنّ ضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلاّ بدليل[٨] قال أبو جعفر : يعنى بقوله جلّ ثناؤه : وإنّها وإنّ الصّلاة . فالهاء والألف فى وإنها عائدتان على الصّلاة[٩] .

لكبيرةٌ : لشاقّةٌ ثقيلة . من قولك : كبُر علىّ هذا الأمر . كبُر على المشركين

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٨٧ والجلالين والكشّاف ١/٢١٤ والبحر المحيط ١/١٨٤ وتفسير الطّبرى ١/٢٠٥

(٢) تفسير ابن كثير ١/٨٧ وتفسير القرطبى ص ٣١٧

(٣) البحر المحيط ١/١٨٤ (٤) الجلالين .

(٥) تفسير القرطبى ص ٣١٧ (٦) البحر المحيط ١/١٨٢

(٧) تفسير الطّبرى ١/٢٠٥

(٨) البحر المحيط ١/١٨٥ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٣١٨ والكّشاف ١/٢١٤

(٩) تفسير الطّبرى ١/٢٠٦

ما تدعوهم إليه[١] أى شق ذلك وثقل[٢] والكبيرة من كبُر يكبُر ويكون ذلك فى الجرم وفى القدر . ويقال : كبُر علىَّ كذا أى شقّ . وكَبِرَ يَكْبَرُ فهو كبيرٌ من السّنّ . قال الشاعر :

صغيرين نرعى البَهْمَ يا ليت أنّنا إلى اليوم لم نَكْبَرْ ولم يكبَرِ البَهْمُ[٣]

والخشوع هيئةٌ فى النّفس يظهر منها فى الجوارح سكونٌ وتواضع . وقال قتادة : الخشوع فى القلب وهو الخوف وغضّ البصر فى الصّلاة[٤] قال سهل بن عبد الله : لا يكون خاشعًا حتىّ تخشع كلّ شعرةٍ على جسده لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ تقشعر منه جلود الّذين يخشون ربّهم ﴾[٥] وأصل الخشوع التّواضع والتّذلّل والاستكانة . ومنه قول الشّاعر :

لمّا أتى خبر الزّبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع

يعنى والجبال خشّع متذلّلة لعظم المصيبة بفقده[٦] .

يأمر رب العزّة المؤمنين أن يستعينوا على أمورهم وقضاء حوائجهم وما يصادفهم من صعاب وما يعترضهم من بلاء بالصّبر وبإقامة الصّلاة . وإذا كان الصّبر ثلاثة أنواع ، صبر على المعصية ، وصبرٌ على الطّاعة ، وصبرٌ على البليّة[٧] فالصّبر الّذى تعنيه الآية الكريمة هنا هو النّوع الثّالث ، الصّبر على البليّة . والمعروف أنّ الإيمان نصفان ، نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكر[٨] والمطلوب من المؤمن أن يصبر وأن يكون صابراً فى كلّ الأحوال ، ولمّا كان الصّبر يتجلّى فى الصّلاة بوضوحٍ تامّ ، ولمّا كان تتابع الصّلوات وتواليها فى اليوم واللّيلة محتاجاً إلى شحنةٍ كبيرةٍ من الصّبر ، فقد كان النّصّ من بين سائر العبادات على الصّلاة ، علماً بأنّ آيةً كريمةً سابقة أمرت بالصّلاة وبالزّكاة ، كما أمرت بأداء الصّلاة جماعة . فللصّلاة دائماً وأبداً مكانتها العالية الرّفيعة لأنّها عماد الدين

---

(١) الكشّاف ١/٢١٤
(٢) البحر المحيط ١/١٨٥
(٣) البحر المحيط ١/١٨٢
(٤) تفسير القرطبى ص ٣١٩
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٠
(٦) تفسير الطّبرىّ ١/٢٠٦
(٧) انظر هنا طريق الهجرتين وباب السّعادتين لابن القيم ٣٤٠ — ٣٤٢
(٨) طريق الهجرتين وباب السّعادتين ص ٣٤٠

ولتجلّى الصّبر فيها بسبب تواليها بأكثر من تجلّيه فى سائر العبادات .

وقد بيّنت الآية الكريمة أنّ الصلاة بالذّات ثقيلةٌ وشاقة إلاّ على الخاشعين المخبتين لله تعالى المتواضعين العابدين الخائفين الوجلين . وحينما يعود الضّمير فى القول : « وإنّها » على الصّلاة بصفةٍ خاصّة ، وحينما يكون الصّبر عنصراً أساسياً فى أداء الصّلاة وبخاصّةٍ فى حقّ الخاشعين ، يكون الصّبر قد دخل ضمناً فى الصّلاة وكأنّ الضّمير قد عاد عليه هو الآخر لأنّ الصّبر عماد كلّ العبادات وفى مقدّمتها الصّلاة : « قال الضّحّاك : وإنّها لكبيرة قال : إنّها لثقيلةٌ إلاّ على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصّدقين بوعده ووعيده »[١] .

وقدّم الصّبر على الصّلاة قيل : لأنّ تأثير الصّبر فى إزالة ما لا ينبغى . وتأثير الصّلاة فى حصول ما ينبغى . والنّفى مقدّمٌ على الإثبات[٢] وقال على رضى الله عنه : الصّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد[٣] . ويقول القرطبى[٤] : « وصف الله تعالى جزاء الأعمال وجعل لها نهايةً وحدّا فقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ . وجعل جزاء الصدّقة فى سبيل الله فوق هذه فقال : ﴿ مثل الّذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبّة .... ﴾ ، الآية . وجعل أجر الصّابرين بغير حساب ومدح أهله فقال : ﴿ إنّما يُوَفَّى الصّابرون أجرهم بغير حساب . وقال : ولَمَنْ صبر وغفر إنّ ذلك لَمِنْ عزم الأمور ﴾ » .

وما هى أهمّ سمات الخاشعين الّذين يرتاحون للصلاة ويرتاحون بأدائها متأسّين بالمصطفى ﷺ الّذى جعل الله تعالى قرّة عينه فى الصّلاة ؟ الجواب فى الآية الكريمة التالية .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٨٨ وتفسير الطّبرى ١/٢٠٦

(٢) البحر المحيط ١/١٨٤

(٣) تفسير القرطبّى ص ٣١٧

(٤) تفسير القرطبّى ص ٣١٨

الآيــة رقــم (٤٦)

قال تعالى : ﴿ الّذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم وأنّهم إليه راجعون ﴾ .

الظّنّ هنا فى قول الجمهور بمعنى اليقين . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّى ظننت أنّى ملاقٍ حسابيه ﴾ ، وقوله : ﴿ ورأى المجرمون النّار فظنّوا أنّهم مواقعوها ﴾[1] إنّ من أهم نعوت هؤلاء الخاشعين المحافظين على الصّلاة أنّهم موقنون بأنّهم ملاقو ربّهم جلّ وعلا بعد الموت من أجل الحساب آملين فى عفو ربّهم جلّ وعلا طامعين فى ثوابه فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود الّذى يرجعون فيه إلى الله تعالى وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ واتّقوا يوماً تُرْجَعون فيه إلى الله ثمّ تُوَفّى كلُّ نفسٍ ما كَسَبَتْ وهم لا يظلمون ﴾ ولنتأمّل لفظ الرّب المتّصل به ضمير الجماعة العائد إلى الخاشعين « ربهم » إنّ لفظ الرّبّ إنّما يستعمل فى القرآن الكريم فى مواقف الخصوص وفى مواطن الرّضا والبهجة والسّرور ، وفى مقام التّنويه بآلاء الرّبّ الغفور . إنّ الإيمان بالبعث والنشور والجزاء جزءٌ لا يتجزّأ من المؤمنين المتّقين المصلّين الخاشعين . وهم بناءً على ذلك يعملون فى دار الحرث والزّرع طمعاً فى جنى شهىّ الثّمار يوم الجزاء .

الآيــة رقــم (٤٧)

قال تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى الّتى أنعمت عليكم وأنّى فضّلتكم على العالمين ﴾ .

الفضل : الزّيادة ، واستعماله فى الخير . وفِعْلُه فَعَلَ يَفعُلَ . وأصله أن يتعدّى بحرف الجرّ وهو على ، ثمّ بحذف على ، على حدّ قول الشّاعر وقد جمع بين الوجهين .

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٢٠ وتفسير الطبرى ١/٢٠٦ ، ٢٠٧ والجلالين والبحر المحيط ١/١٨٥

(٢) سورة البقرة ٢٨١

وجدنا نهشلاً فَضَلَتْ فُقَيْماً كفضل ابن المخاض على الفصيل[١]

وأنى فضلتكم : أى آباءكم[٢] .

على العالمين : أى عالمى زمانهم . قاله الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم[٣] .

أعيد نداء بنى إسرائيل على طريق التّوكيد ولِيَنَبَّهُوا لِسماع ما يرد عليهم من تعداد النّعم الّتى أنعم الله بها عليهم وتفصيلها نعمةً نعمة . فالنّداء الأوّل للتّنبيه على طاعة المنعم . والنّداء الثّانى للتّنبيه على شكر النّعم[٤] والآية الكريمة تخاطب بنى إسرائيل فى ألطف طريق وتناديهم بأحبّ الأسماء إليهم وذلك بكونهم ابن نبىّ الله تعالى يعقوب عليه السّلام ، بل إن الآية الكريمة لتختار « إسرائيل » وليس يعقوب ، وقد عرفنا أنّ معناه عبد الله أو صفوة الله ، شحذاً لهمّة القوم كى يشابهوا أباهم فى الصّلاح والتّقوى وطاعة الله تعالى . فالمطلوب من بنى إسرائيل أن يذكروا نعم الله تعالى الّتى لا تُحْصى عليهم ، وذكْرُ النّعم شُكْرُ الله تعالى المنعِم عليها . وتلك النّعم وإن كانت قد آثر الله تعالى بها آباءهم ، فإنّ الذّرارى لا يزالون يتقلّبون فى آثارها . فبنو إسرائيل سكّان يثرب آنذاك أمام أعينهم التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى لموسى عليه السّلام وفيها الهدى والنّور ، وفيها نعت خاتم الأنبياء والمرسلين وفيها الأمر باتّباعه عليه الصّلاة والسّلام إذا بُعِث .

وقد فضّل الله تعالى بنى إسرائيل على عالمى زمانهم وعلى سائر الأمم المعاصرة لهم آنذاك ، لأنّهم وقتها كانوا أهلاً لذلك التّفضيل ، بسبب طاعتهم لله تعالى ولرسول الله تعالى إليهم ، ولكنّهم سُرْعان ما بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً فاستّحقوا العذاب الأليم . وقد أشار القرآن الكريم فى العديد من المواضع إلى بعض مظاهر ذلك التّفضيل . جاء فى سورة المائدة[٥] قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ وجاء فى سورة الدخان[٦]

---

(١) البحر المحيط ١٨٧/١ (٢) الجلالين

(٣) البحر المحيط ١٨٩/١ وانظر تفسير ابن كثير ٨٨/١ وتفسير الطّبرىّ ٢٠٨/١

(٤) البحر المحيط ١٨٩/١ (٥) الآية ٢٠

(٦) الآيات ٣٠ — ٣٢

قوله تعالى : ﴿ ولقد نجّينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنّه كان عالياً من المسرفين . ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين ﴾ وجاء فى سورة الجاثية[١] قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنّبوّة ورزقناهم من الطّيّبات وفضّلناهم على العالمين ﴾ .

وحينما بدّل بنو إسرائيل نعمة الله كفراً جاء فى حقهم مثل قوله تعالى فى سورة المائدة[٢] : ﴿ قل هل أنبّئكم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القِردة والخنازير وعبد الطّاغوت . أولئك شرٌّ مكاناً وأضلّ عن سواء السَّبيل ﴾ وقوله تعالى فى سورة الأعراف[٣] : ﴿ وإذ تأذّن ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ .

وقد جاء فى حقّ الأمّة المحمّديّة ما يفيد كونها خير الأمم على الإطلاق . قال تعالى[٤] : ﴿ كنتم خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ . « وقال القشيرىّ : أشهد بنى إسرائيل فضل أنفسهم فقال . ﴿ وإنّى فضّلتكم على العالمين ﴾ . وأشهد المسلمين فضل نفسه فقال : قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا . فشتّان بين مَنْ مشهوده فضل ربّه ومن مشهوده فضل نفسه . فالأوّل يقتضى الثّناء . والثّانى يقتضى الإعجاب . انتهى[٥] » وبما أنّ التفضيل داخلٌ فى النّعم فنحن إذن بصدد عطف الخاصّ على العام[٦] .

الآيــة رقــم (٤٨)

قال تعالى : ﴿ واتّقوا يوماً لا تَجْزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ منها شفاعةٌ ولا يؤخذ منها عدلٌ ولا هم يُنْصَرون ﴾ .

---

(١) الآية ١٦
(٢) الآية ٦٠
(٣) الآية ١٦٧
(٤) سورة آل عمران ١١٠
(٥) البحر المحيط ١٨٩/١
(٦) البحر المحيط ١٨٩/١

واتّقوا يوماً : يريد عذابه وهوله وهو يوم القيامة[١] .

لا تجزى نفسٌ : لا تُغْنى[٢] « وأصل الجزاء فى كلام العرب القضاء والتّعويض . يقال : جزيتُه قرضه ودينه أجزيه جزاءً بمعنى قضيته دينه . ومن ذلك قيل : جزى الله فلاناً عنّى خيراً أو شرّاً ، بمعنى أثابه عنّى وقضاه عنّى ما لز منى له بفعله الّذى سلف منه إلىّ[٣] » .

نفسٌ عن نفس : معنى التّنكير أنّ نفساً من الأنفس لا تجزى عن نفسٍ منها شيئاً من الأشياء . وهو الإقناط الكلّىّ القطّاع للمطامع[٤] .

وشيئاً : مفعول به[٥] .

ولا يقبل منها . قبول الشّىء التّوجّه إليه . والفعل قبل يقبل . والقِبَل ما واجهك[٦] والضّمير فى منها عائدٌ على نفس المتأخّرة لأنها أقرب مذكور . أى لا يقبل من النّفس المستشفِعة شفاعة شافع . ويجوز أن يعود الضّمير على نفس الأولى . أى ولا يقبل من النّفس الّتى لا تجزى عن نفسٍ شيئاً شفاعة هى بصدد أن لو شفعت لم يقبل منها[٧] .

شفاعة : « قال أبو جعفر : والشّفاعة مصدر من قول الرّجل شفع لى فلان إلى فلان شفاعة وهو طلبه إليه فى قضاء حاجته . وإنّما قيل للشّفيع شفيع وشافع لأنّه ثنّى المستشفَعَ له فصار له شفعاً فكان ذو الحاجة قبل استشفاعه به فى حاجته فرداً فصار صاحبه له فيها شافعاً وطلبه فيه وفى حاجته شفاعة »[٨] فالشفاعة « مأخوذة من الشّفع وهما الاثنان . تقول : كان وتراً فشفعته شفعاً ..... فالشّفاعة إذاً ضمّ غيرك إلى جاهك ووسيلتك ، فهى على التّحقيق إظهارٌ لمنزلة الشّفيع عند المشفّع وإيصال منفعته

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٣٢١ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٠٩

(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٢٠٩ وتفسير ابن كثير ١/٨٩ والبحر المحيط ١/١٨٧

(٣) تفسير الطّبرىّ ١/٢٠٩

(٤) الكشّاف ١/٢١٤ والبحر المحيط ١/١٩٠

(٥) الكشّاف ١/٢١٤ والبحر المحيط ١/١٩٠

(٦) البحر المحيط ١/١٨٧

(٧) البحر المحيط ١/١٩٠

(٨) تفسير الطّبرىّ ١/٢١١

للمشفوع[١] قال الأحوص :

كأنّ من لامنى لِأَصْرِمها كانوا لليلى بلومهم شفعوا[٢]

عدل : فداء[٣] يقول القرطبىّ[٤] : « والعدل بفتح العين الفداء . وبكسرها المِثْل . يقال : عِدْل وعديل للّذى يماثلك فى الوزن والقدر . ويقال : عِدْل الشّىء هو الذّى يساويه قيمةً وقدراً ، وإن لم يكن من جنسه . والعِدْل بالكسر هو الّذى يساوى الشّىء من جنسه وفى جرمه » .

وكان سبب نزول هذه الآية فيما ذكروا[٥] أنّ بنى إسرائيل قالوا : نحن أبناء الله وأحبّاؤه وأبناء أنبيائه وسيشفع لنا آباؤنا فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنّه لا تُقْبل فيه الشّفاعات ولا يؤخذ فيه فدية .

بعد أن نبّهت الآية الكريمة السّابقة بنى إسرائيل بأن يذكروا نعم الله تعالى وإنّما يكون الذّكر بالشّكر ، علماً بأنّ التّنبيه يجئ هنا للمرّة الثّانية فى هذه المجموعة من الآيات الكريمات ، يتحوّل السّياق إلى التّحذير من النّقم . وها هى ذى الآية الكريمة تأمر بنى إسرائيل بأن يتّقوا يوم القيامة ، وذلك بامتثال الأوامر واجتناب النّواهى ، كى تكون أعمالهم الصّالحة المتقبّلة بإذن الله تعالى ، وفى مقدمتها اتّباع النبىّ الأمّىّ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة ، وقايةً لهم من النّار وبئس القرار . وفى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود لا تغنى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل منها عدلٌ ولا يؤخذ منها شفاعةٌ ولا هم ينصرون . وقد رتّبت الآية الكريمة المعانى ترتيباً معجزاً ملموساً فى واقع حياتنا الدّنيا . ويتلخّص هذا الإعجاز فى كون السّياق يتدرج فى سرده لسياق الجزئيّات مراعياً تقديم الأَوْلى فالأَوْلى . ويلاحظ أنّ ثمّة كبير شبه فى نظم الآية الكريمة وفى نظم الآية الكريمة الثالثة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة قال تعالى : ﴿ واتّقوا يوماً لا تجزى

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٢٢ والجلالين وتفسير ابن كثير ٨٩/١

(٢) البحر الحيط ١٨٧/١ .

(٣) تفسير القرطبى ص ٣٢٤ والجلالين وتفسير ابن كثير ٨٩/١

(٤) تفسير القرطبى ص ٣٢٤ .

(٥) تفسير القرطبى ص ٣٢٥ وتفسير الطّبرىّ ٢١١/١ والكشّاف ٢١٥/١

نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقْبلُ منها عَدْلٌ ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هم يُنْصرون ﴾ مع تغييرٍ طفيف فى ترتيب جزئيّات المعنى . ولكلٍّ من التّرتيبين حكمة ..

لقد نفت الآية الكريمة أن تجزى يوم القيامة وتغنى أىُّ نفسٍ عن أىّ نفسٍ أخرى . وبالنّظر إلى قوله تعالى من سورة لقمان[1] : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم وأخشَوْا يوماً لا يجزى والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئا . إنّ وعد الله حقٌّ فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا ولا يغرّنكم بالله الغَرور ﴾ نستطيع أن نفهم بسبب النّصّ على الجزاء ، أنّ الجزاء المنفىّ فى آية سورة البقرة يوم القيامة هو المتعلّق بأقرب الأقرباء ابتداءً ، من والدٍ وولد . وفى نفى الجزاء والغناء عن أقرب النّاس بعضهم لبعض ، نفىٌ ضمنىّ للجزاء والغناء عمّن وراءهما من قريبٍ أو صديقٍ حميم ، ونستطيع أن نفهم وراء ذلك مسئوليّة كلّ إنسان مسئوليّةً مطلقةً أمام بارئه جلّ وعلا ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تَدْع مُثْقلةٌ إلى حملها لا يُحْمَل منه شيءٌ ولو كان ذا قُرْبى ﴾[2] إنّ نفى غَناءِ نفسٍ عن نفسٍ يوم القيامة متحقّقٌ فى حقّ كلٍّ من المؤمنين والكافرين ، وهو فى حقّ الكافرين آكد . وبعد نفى نفع القريب تتحوّل الآية الكريمة إلى نفى البعيد ، منبّهةً إلى ما جرت عليه عادة البشر فى هذه الحياة الدّنيا من خطوات ، مراعيةً فى سردها ترتيب تلك الخطوات والدّرجات . فإذا كانت العادة فى الحياة الدّنيا قد جرت بعد عدم غناء القريب أن يتمّ اللّجوء إلى الشّفيع الّذى يتحوّل به ذو الحاجة من كونه فرداً ووتراً إلى كونه شفعاً وزوجاً ، وذلك بضمّ ذى الحاجة إلى جاه الشّفيع ووسيلته وينجم عن ذلك إظهار منزلة الشّفيع عند المشفّع وإيصال منفعته للمشفوع ، فإنّ هذا المعنى تنبّه عليه الآية الكريمة وتراعيه فى ترتيب المعانى ﴿ ولا يقبل منه شفاعة ﴾ والمعروف أنّه فى الآية الكريمة الأخرى من سورة البقرة يتقدّم العدل ويتأخّر نفع الشّفاعة . والمعروف أنّ الشفاعة جاهٌ ورياسة ، فمن غلب عليه حبّ الرّياسة قدّم الشّفاعة وأخّر المال المتمثّل فى الفداء . وهذا ما نبّه عليه السّياق هنا ، إضافّة إلى التّنبيه على تقدّم الشفاعة فى هيئة نفى قبول الشّفاعة

---

(١) الآية ٣٣ .

(٢) سورة فاطر ١٨

أساساً ، بينما تقدّم فى الآية الكريمة الأخرى ذكر الفداء وتأخّرت الشّفاعة فى التّرتيب مقترناً بها متعلّقها المتأخر ألا وهو النّفع الذى جاء بدل متعلّقها المتقدّم ألا وهو القبول . وفى تقديم المال تنبيه على تقديم من يغلب عليه حبّ المال الفدية على الشّفاعة[١] وممّا يعمّق تقديم المال فى الآية الكريمة الأخرى ربطُ نفى القبول بالفداء ، بينما نفى أخذه فى هذه الآية الكريمة . ومعروفٌ أنّ الأخذ والتّناول مبنيٌّ على القبول والرِّضا .

إنّ الآية الكريمة بعد نفى قبول الشّفاعة نفت ما يليه فى العادة وهو أخذ الفداء . وأخيراً نفت عن القوم أن ينصرهم أىّ ناصر . يقول أبو حيّان[٢] : « ولا هم يُنْصرون ، أتى بالضّمير مجموعاً على معنى نفس لأنّها نكرة فى سياق النّفى فتعمّ كقوله تعالى : ﴿ فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾ . وأتى به مذكّراً لأنّه أريد بالنّفوس الأشخاص كقولهم : ثلاثة أنفس . وجعل حرف النّفى منسحباً على جملة اسميّة ليكون الضّمير مذكوراً مرّتين فيتأكّد ذكر المنفىّ عنه النّصر بذكره مرّتين . وحسّن الحمل على المعنى كون ذلك فى آخر فاصلة فيحصل بذلك التّناسب فى الفواصل بخلاف أن لو جاء : ولا تنصر إذ كان يفوت التّناسب » .

الآيــة رقــم (٤٩)

قال تعالى : ﴿ وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم ﴾ .

بعد أن حثّت أولى الآيتين الكريمتين السّابقتين بنى إسرائيل على تذكّر سوابق نعم الله تعالى عليهم ولزوم قيامهم بواجب شكرها ، حذّرت ثانية الآيتين الكريمتين القوم من لواحق النّقم فى حال كفران النّعم . وها هى ذى الآية الكريمة التّالية تذكر إحدى هذه النّعم الكبار .

---

(١) انظر البحر المحيط ١٩٢/١ وكلام أبى حيّان العظيم فى ترتيب جمل الآية .

(٢) البحر المحيط ١٩١/١

وإذ نجّيناكم : عطفٌ على قوله يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى ، فكأنّه قال : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم واذكروا إنعامنا عليكم إذ نجّيناكم من آل فرعون بإنجائنا لكم منهم[١] وعليه تكون إذ فى موضع نصب عطفاً على : اذكروا نعمتى[٢] وإذْ اسمٌ للوقت الماضى وإذا اسمٌ للوقت المستقبل[٣] .

والنّجاة : التّنجية من الهلكة بعد الوقوع فيها : والأصل الإلقاء بنجوة . قال الشاعر :

ألم تر للنّعمان كان بنجوةٍ من الشّرّ لـو أنّ امـرَأً كان ناجيـا[٤]

والنّجوة من الأرض ما ارتفع منها[٥] والخطاب للموجودين والمراد من سلف من الآباء كما قال : ﴿ إنّا لمّا طغى الماء حملناكم فى الجارية ﴾ . أى حملنا آباءكم . وقيل : إنّما قال : نجّيناكم لأن نجاة الآباء كانت سبباً لنجاة هؤلاء الموجودين[٦] .

آل فرعون : قومه وأتباعه وأهل دينه ، وكذلك آل الرّسول ﷺ من هو على دينه وملّته فى عصره وسائر الأعصار ، سواءٌ كان نسيباً له أو لم يكن . ومن لم يكن على دينه وملّته فليس من آله ولا أهله ، وإن كان نسيبه وقريبه[٧] وخص استعماله بأولى الخطر والشّأن كالملوك وأشباههم فلا يقال آل الإسكاف والحجّام[٨] وأصل آل أهل أبدلت الهاء همزة كما قالوا ماه ، فأبدلوا الهاء همزة ، فإذا صغّروه قالوا : مويه ، فردّوا الهاء فى التّصغير وأخرجوه على أصله ، وكذلك إذا صغّروا آل قالوا : أهيل[٩] .

فرعون : قيل إنه اسم ذلك الملك بعينه[١٠] وقيل : فرعون علمٌ على كلّ من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم ، كما أنّ قيصر علمٌ على كلّ من ملك الرّوم مع الشّام كافراً ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبّع لمن ملك اليمن كافراً ، والنّجاشى لمن ملك الحبشة . وبطليموس لمن ملك الهند[١١] ولعتوّ الفراعنة اشتقّوا تفرعن فلانٌ إذا

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢١٢
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٥
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٠
(٤) البحر المحيط ١/١٨٧
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٥
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٥
(٧) تفسير القرطبى ص ٣٢٥
(٨) الكشّاف ١/٢١٥
(٩) تفسير الطبرىّ ١/٢١٢
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٧
(١١) تفسير بن كثير ١/٩٠

عتا وتجبّر[١] .

يسومونكم : يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم . يقال منه : سامه خطّة ضيم إذا أولاه ذلك وأذاقه ، كما قال الشاعر :

إن سيم خسفاً وجهه تربّدا[٢]

كما يقال : سامه خُطَّةِ خَسْف إذا أولاه إيّاها . قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقرّ الخسف فينا[٣]

وقيل معناه يديمون تعذيبكم ، والسَّوْم الدّوام ، ومنه سائمة الغنم لمداومتها الرّعى[٤] .

السُّوء بضمّ السّين الاسم من ساءَه سَوْأً إذا فعل به ما يكره فاستاء هو[٥] وسوء العذاب : أشقّه وأصعبه[٦] وهو مفعولٌ ثانٍ ليسومونكم[٧] عن ابن إسحاق : كان فرعون يعذّب بنى إسرائيل فيجعلهم خدماً وخولاً وصنّفهم فى أعماله فصنفٌ يبنون ، وصنف يزرعون له ، فهم فى أعماله ، ومن لم يكن منهم فى صنعةٍ من عمله فعليه الجزية فسامهم كما قال الله عزَّ وجلّ سوء العذاب[٨] .

يذبّحون . قرأ الجمهور يذبّحون بالتّشديد على المبالغة[٩] وهو أولى لظهور تكرار الفعل باعتبار متعلّقاته . وقرأ الزّهرىّ وابن محيصن يذبحون خفيفاً من ذبح المجرّد اكتفاءً بمطلق الفعل وللعلم بتكريره من متعلّقاته[١٠] ويذبّحون بدل من يسومونكم ، بدل الفعل من الفعل نحو قوله تعالى : ﴿ يلق أثاما يضاعف له العذاب ﴾ وقال الشّاعر :

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا تجد حطباً جزلاً ونـاراً تأجّجـا[١١]

---

(١) الكشّاف ١/٢١٥ (٢) تفسير الطّبرىّ ١/٢١٣

(٣) تفسير ابن كثير ١/٩٠ وانظر الكشّاف ١/٢١٥ والبحر المحيط ١/١٨٨

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٧ (٥) القاموس « ساءه » .

(٦) البحر المحيط ١/١٩٣ (٧) تفسير القرطبىّ ٣٢٧

(٨) تفسير الطّبرىّ ١/٢١٤

(٩) تفسير القرطبىّ ٣٢٩ و ٣٢٨ والبحر المحيط ١/١٩٣

(١٠) البحر المحيط ١/١٩٣

(١١) البحر المحيط ١/١٩٤ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٣٢٨

وقد جاء فى سورة إبراهيم بالواو . قال تعالى[١] : ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم ﴾ قال الفرّاء وغيره : يذبّحون بغير واوٍ على التّفسير لقوله : يسومونكم سوء العذاب ، كما تقول : أتانى القوم زيدٌ وعمرو . فلا تحتاج إلى الواو فى زيد . ونظيره : ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب . وفى سورة إبراهيم : ويذبّحون بالواو لأنّ المعنى يعذّبونكم بالذّبح وبغير الذّبح . فقوله : ويذبّحون أبناءكم جنسٌ آخر من العذاب لا تفسيرٌ لما قبله . والله أعلم»[٢] .

ويستحيون : الاستحياء هنا الإبقاء حيّاً . واستفعل فيه بمعنى أفعل . استحياه وأحياه بمعنًى واحد[٣] وذلك أنّ الاستحياء إنّما هو الاستفعال من الحياة ، نظير الاستبقاء من البقاء والاستسقاء من السقى[٤]

والنّساء اسمٌ يقع للصّغار والكبار وهو جمع تكسير لنسوة . ونسوة على وزن فعلة وهو جمع قلّة ... والواحدة امرأة[٥] والنّساء هنا البنات ، وسمّوا نساءً باعتبار ما يؤلن إليه[٦] وكان فرعون يذبح الأطفال ويبقى البنات[٧] وكان على ما روى قد رأى فى منامه ناراً أخرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر ، فأوّلت له رؤياه أنّ مولوداً من بنى إسرائيل ينشأ فيكون خراب ملكه على يديه . وقيل غير هذا ، والمعنى متقارب[٨] .

وفى ذلكم : إشارةٌ إلى جملة الأمر إذ هو خبر ، فهو كمفرد حاضر ، أى وفى فعلهم ذلك بكم[٩] وقال الجمهور : الإشارة إلى الذّبح ونحوه ، والبلاء هنا الشرّ والمعنى وفى الذّبح مكروه وامتحان[١٠] والبلاء: الاختبار . بلاه يبلوه بلاءً اختبره . ثمّ صار يطلق على المكروه والشّدّة . يقال : أصاب فلاناً بلاء أى شدّة وهو راجع لمعنى البِلى . كأن المبتلى يئول حاله إلى البلى وهو الهلاك والفناء . ويقال : أبلاه بالنّعمة وبلاه بالشّدّة . وقد

---

(١) سورة إبراهيم ٦
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٨ وانظر البحر المحيط ١٩٤/١
(٣) البحر المحيط ١٨٨/١
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢١٦/١
(٥) البحر المحيط ١٨٨/١
(٦) البحر المحيط ١٩٤/١
(٧) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٨
(٨) تفسير القرطبىّ ص ٣٢٩
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٣٣٠
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٣٣٠ وانظر البحر المحيط ١٩٤/١

يدخل أحدهما على الآخر فيقال بلاه وأبلاه بالشرّ[1] « وأصل البلاء فى كلام العرب الاختبار والامتحان ، ثمّ يستعمل فى الخير والشرّ لأنّ الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشرّ كما قال الله جلّ ثناؤه : وبلوناهم بالحسنات والسّيّئات لعلّهم يرجعون . يقول : اختبرناهم . وكما قال جلّ ذكره :﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة﴾ . ثمّ تسمّى العرب الخير بلاء والشرّ بلاء ، غير أنّ الأكثر فى الشرّ أن يقال بلوته أبلوه بلاءً وفى الخير أبليته أبليه إبلاءً وبَلاءً . ومن ذلك قول زهير بن أبى سُلْمى :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الّذى يبلو

فجمع بين اللّغتين لأنّه أراد فأنعم الله عليهما خير النّعم الّتى يختبر عباده[2] » .

تخاطب الآية الكريمة بنى إسرائيل المعاصرين ﷺ ونزول القرآن الكريم ، مذكّرة لهم بنعمةٍ من أكبر نعم الله تعالى على آبائهم ، وقد انتهى إليهم خيرها ، منبّهةً أولئك الأبناء إلى لزوم قيامهم بواجب شكرها . أمّا هذه النّعمة فهى تنجية الله تعالى موسى عليه السّلام وقومه بنى إسرائيل من فرعون وآله الّذين أذاقوا بنى إسرائيل أشدّ العذاب وأصعبه وألزموهم إيّاه . وتنصّ الآية الكريمة على قمّة ذلك العذاب وأشدّه وقد تمثّل ذلك فى تذبيح آل فرعون أطفال ذلك العذاب وأشدّه وقد تمثّل ذلك فى تذبيح آل فرعون أطفال بنى إسرائيل الذّكور بقصد استئصال شأفتهم وقتل المولود من بنى إسرائيل ضمن الأطفال المقتولين ، ذلك المولود الّذى أوّل المؤوّلون رؤيا الملك الّتى رآها بأنّه الّذى سيكون خراب ملكه على يديه وبما أنّ فرعون وآله لم يكونوا يخشون النّساء لذا فإنّهم لم يقتلوا البنات اللاّتى عبّر عنهن فى الآية الكريمة بالنّساء باعتبار ما يؤلن إليه . ثم إنّ فى ذكر النّساء تنبيهاً على حرص آل فرعون الحصول على كلّ المنافع من نساء بنى إسرائيل بعد بلوغهنّ تلك السّنّ الّتى تتعدّد منافعهنّ فيها وتتنوّع . وتستمرّ الآية الكريمة فى تذكير ذرارى بنى إسرائيل بأنّ فى ذلك التّقتيل للذّكور والإبقاء على النّساء أحياءَ بلاءٌ من الله تعالى عظيم . أمّا الذّكور فإنّهم النّفوس البريئة الّتى يزهقها فرعون وآله ظلماً وعدوانا . وأمّا النّساء

---

(١) البحر المحيط ١/١٨٩

(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٢١٧

فإنّهنّ يعشن كى يرين ذلك البلاء الملازم لهنّ صباحاً ومساءً .

ويأتى فى التّذييل ﴿ وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم ﴾ لفظ الرّبّ الّذى يرتبط به الخصوص من ناحية ووجوب القيام بشكر الله تعالى كفاء تربيته عباده بنعمه وآلائه .

وبهذا يجمع التّذييل بين الإشارة إلى النقمة ووجوب شكر النّعمة ، فقد نجّى الله تعالى الآباء ، وفى تنجيته الآباء تنجية للأبناء . وإنّ من أهمّ مظاهر شكر الأبناء الله تعالى تصديقَ خاتم الأنبياء والمرسلين محمّدِ بنِ عبد الله ﷺ .

الآيــة رقــم (٥٠)

قال تعالى : ﴿ وإذ فَرَقْنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ .

وإذ فرقنا بكم : عطفٌ على وإذ نجّيناكم بمعنى واذكروا نعمتى الّتى أنعمت عليكم واذكروا إذ نجّيناكم من آل فرعون وإذ فرقنا بكم البحر[١] وعليه تكون إذ فى موضع نصب[٢] .

فرقنا : فلقنا . فكان كلّ فرقٍ كالطّود العظيم ، أى الجبل . وأصل الفَرْق الفصل ، ومنه فَرْق الشّعر ، ومنه الفُرْقان لأنّه يَفْرُق بين الحقّ والباطل أى يفصل . ومنه : فالفارقات فرقاً . يعنى الملائكة تنزل بالفرق بين الحقّ والباطل . ومنه يوم الفرقان يعنى يوم بدر كان فيه فرقٌ بين الحقّ والباطل . ومنه وقرآناً فرقناه أى فصّلناه وأحكمناه[٣] والفَرْق ضدّه الجمع . ونظائره الفصل وضدّه الوصل والشّقّ والصّدع وضدّهما اللّأم والتّمييز وضدّه الاختلاط[٤] ويحتمل الفرق أن يكون عرضاً من ضِفّةٍ إلى ضِفّــة . ويحتمل أن يكون طولاً ونُقِل كلٌّ[٥] وذكر العامرىّ أنّ موضع خروجهم من البحر كان قريباً من برّيّة فلسطين وهى كانت طريقهم[٦] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢١٧/١
(٢) تفسير القرطبى ص ٣٣٠
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٣٠
(٤) البحر المحيط ١٩٥/١
(٥) البحر المحيط ١٩٧/١
(٦) البحر المحيط ١٩٨/١

البحر قيل هو بحر القُلْزُم[١] والبحر : مكانٌ مطمئنٌّ من الأرض يجمع المياه ويجمع القلّة على أَبْحُر وفى الكثرة على بحور وبحار . وأصله قيل الشّقّ وقيل السّعة . فمن الأوّل البَحيرة وهى الّتى شقّت أذنها . ومن الثّانى البحيرة المدينة المتّسعة . وفرسٌ بحر واسع العدو . وتبحّر فى العلم أى اتّسع .... وجاء فى استعماله فى الماء الحلو والماء المِلْح . قال تعالى : وما يستوى البحران هذا عذبٌ فراتٌ سائغٌ شرابه وهذا مِلْحٌ أجاج . وجاء استعماله للمِلْح . ويقال هو الأصل فيه . أنشد أحمد بن يحى (ثعلب ، لنُصيب) :

وقد عاد عذب الماء بحراً فزادنى على مرضى أن أبحر المشرب العذب

أى صار ملحاً[٢] .

بِكُمْ : يقول الزّمخشرى[٣] : « فإن قلت : ما معنى بكم قلت : فيه أوجه . أن يراد أنّهم كانوا يسلكونه ويتفرّق الماء عند سلوكهم فكأنّما فرق بهم كما يفرق بين الشّيئين بما يوسط بينهما ، وأن يراد فرقناه بسببكم وبسبب إنجائكم ، وأن يكون فى موضع الحال بمعنى فرقناه ملتبساً بكم » ويقول أبو حيّان[٤] : « .... أو معناه اللاّم أى فرقنا لكم البحر أى لأجلكم ومعناها راجعٌ للسّبب » وقد مال القرطبىّ فى تفسيره[٥] إلى كون « الباء فى مكانها أى فرقنا البحر بدخولكم إيّاه ، أى صاروا بين الماءين فصار الفرق بهم . وهذا أولى يبيّنه فانفلق » .

فأنجيناكم : أى أخرجناكم منه . يقال : نجوت من كذا نَجاء ممدود ونجاة مقصور . والصّدق منجاة . وأنجيت غيرى ونجّيته[٦] والمعنى فأنجيناكم من الغرق ومن إدراك فرعون لكم . واليوم الّذى وقع فيه الفَرق والنّجاة والغَرَق

---

(١) البحر المحيط ١٩٨/١ وقد جاء فى معجم البلدان لياقوت : « القُلْزم بالضّمّ ثمّ السّكون ثمّ زاى مضموضة وميم . القلزمة : ابتلاع الشّىء . يقال : تقلزمه إذا ابتلعه . وسمّى بحر القُلْزم قُلْزمًا لالتهامه من ركبه . وهو المكان الّذى غرق فيه فرعون وآله » ويسمّى حالياً : البحر الأحمر .

(٢) البحر المحيط ١٩٥/١ وانظر تفسير القرطبى ص ٣٣٠

(٣) الكشّاف ٢١٥/١

(٤) البحر المحيط ١٩٧/١

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٣٠

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٣١

كان يوم عاشوراء[١] وقد بيّن ابن فارس[٢] أنّ عاشوراء هو اليوم العاشر من المحرّم . ويقول[٣] : « العين والشّين والرّاء أصلان صحيحان : أحدهما فى عددٍ معلوم ثمّ يحمل عليه غيره ، والآخر يدلّ على مداخلةٍ ومخالطة » روى الإمام أحمد عن ابن عبّاس قال قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم الّذى تصومون ؟ قالوا : هذا يومٌ صالح . هذا يومٌ نجّى الله عزّ وجلّ فيه بنى إسرائيل من عدوّهم فصامه موسى عليه السّلام فقال رسول ﷺ : أنا أحقّ بموسى منكم فصامه وأمر بصومه وروى هذا الحديث البخارىّ ومسلم والنّسائى وابن ماجة[٤] وقد بيّن القرطبىّ أن النّبىّ ﷺ كان يصوم عاشوراء فى الجاهليّة . روت عائشة رضى الله عنها قالت : كان يوم عاشوراء تصومه قريش فى الجاهليّة ، وكان رسول الله ﷺ يصومه فى الجاهليّة . فلمّا قدم المدينة صامه وأمر بصيامه . فلمّا فرض رمضان ترك صيام يوم عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه . أخرجه البخارى ومسلم[٥] .

وأنتم تنظرون : جملة فى موضع الحال ومعناه بأبصاركم[٦] .

تمتنّ الآية الكريمة على بنى إسرائيل مخاطبةً الذّرارى باعتبار النّعمة الّتى شملت آباءهم شملتهم ، بأنّ عليهم أن يذكروا كذلك إذ فرق الله سبحانه وتعالى بسببهم البحر كى يسلكوه مع موسى عليه السّلام الّذى أوحى الله سبحانه وتعالى إليه وقد أتبعهم فرعون بجنوده فكان العدوّ خلفهم والبحر الأحمر أمامهم ، أوحى الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السّلام أن يضرب بعصاه البحر كى يسلكوه طريقاً آمناً يبساً ، فقد انفلق البحر وانفرق اثنى عشر طريقاً كى يسلك كلاً منها سبطٌ من الأسباط الاثنى عشر أو قبيلة ، من سلالة يعقوب عليه السّلام الّذى كان له اثنا عشر ولداً ، كلّ سبط يمثّل قبيلة . لقد نجّا الله

---

(١) البحر المحيط ١٩٨/١

(٢) معجم مقاييس اللّغة « عشر » ٣٢٦/٤

(٣) ص ٣٢٤ وانظر تفسير القرطبىّ ٣٣٣ ، ٣٣٤ بشأن يوم عاشوراء وكونه التّاسع أو العاشر .

(٤) تفسير ابن كثير ٩١/١ (٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٣٣

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٣٤ والبحر المحيط ١٩٨/١

سبحانه وتعالى موسى وقومه وأغرق فرعون وآله . وهكذا نجّا الله تعالى بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون الّذى كان عاليًا من المسرفين ، وأغرق الطّاغية وآله الّذين أتْبعوا موسى وقومه مشرقين . وبإرادة الله تعالى ينجو موسى وقومه أمام نظر فرعون وملئه . ويغرق فرعون وآله أمام نظر موسى وقومه . ما أعظمها منّةً على بنى إسرائيل قوم موسى وذراريهم . وإنّ واجب ذرارى القوم أن يعبّروا عن شكر الله تعالى بطاعته جلّ وعلا الّذى يأمرهم باتّباع الرّسول النّبىّ الأمىّ محمّد ﷺ . ومن السّور الكريمة الّتى تحدّثت عن غرق فرعون وآله سورة الشعراء . قال تعالى[1] : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنّكم متّبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إنّ هؤلاء لشِرْذمةٌ قليلون . وإنّهم لنا لغائظون . وإنّا لجميعٌ حاذرون . فأخرجناهم من جنّات وعيون . وكنوزٍ ومقامٍ كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل . فأتبعوهم مشرقين . فلمّا تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون . قال كلاّ إنّ معي ربّى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن وضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فِرْقٍ كالطود العظيم . وأزلفنا ثَمَّ الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثمّ أغرقنا الآخرين ﴾ وجاء فى سورة يونس[2] قوله تعالى : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنودُه بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنّه لا إلـه ألاّ الّذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قَبْلُ وكنت من المفسدين . فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإنّ كثيراً من النّاس عن آياتنا لغافلون ﴾ وجاء فى سورة طه[3] قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دَرَكاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ .

ولأبى حيّان ملاحظةٌ طريفة على التّناسب بين نجاة موسى عليه السّلام من الغرق طفلا وغرق فرعون طاغية . يقول[4] : « وناسب نجاتهم من فرعون بإلقائهم فى البحر

---

(١) سورة الشّعراء ٥٢ — ٦٦
(٢) الآيات ٩٠ — ٩٢
(٣) الآيات ٧٧ — ٧٩
(٤) البحر المحيط ١٩٨/١

وخروجهم منه سالمين نجاة نبيّهم موسى على نبيّنا وعليه السّلام من الذّبح بإلقائه وهو طفلٌ فى البحر وخروجه منه سالما . ولكلّ أمّة نصيبٌ من نبيّها . وناسب هلاك فرعون وقومه بالغرق هلاك بنى إسرائيل على أيديهم بالذّبح ، لأنّ الذّبح فيه تعجيل الموت بإنهار الدّم . والغرق فيه إبطاء الموت ولا دم خارج . وكان ما به الحياة ، وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حىّ ، سببًا لإعدامهم من الوجود . ولمّا كان الغرق من أعسر الموتات وأعظمها شدّةً جعله الله نكالاً لمن ادّعى الرّبوبيّة فقال : أنا ربّكم الأعلى إذ على قدر الذّنب يكون العقاب . ويناسب دعوى الرّبوبية والاعتلاء ، انحطاط المدّعى وتغييبه فى قعر الماء » .

الآيــة رقــم (٥١ ، ٥٢)

قال تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثمّ عفونا عنكم من بعد ذلك لعلّكم تشكرون ﴾ .

واعدنا : « قرأ الجمهور واعدنا . وقرأ أبو عمرو وعدنا بغير ألف هنا وفى الأعراف وطه . ويحتمل واعدنا أن يكون بمعنى وعدنا ويكون صدر من واحد ، ويحتمل أن يكون من اثنين على أصل المفاعلة فيكون الله قد وعد موسى الوحى ويكون موسى وعد الله المجىء للميقات ..... وقيل وعد إذا كان عن غير طلب وواعد إذا كان عن طلب ..... ولا وجه لترجيح إحدى القراءتين على الأخرى لأنَّ كلاً منهما متواتر ، فهما فى الصّحّة على حدٍّ سواء . وأكثر القرّاء على القراءة بألف وهى قراءة مجاهد والأعرج وابن كثير ونافع والأعمش وحمزة والكسائىّ[1] وهذه المواعدة للتّكلم أو لإنزال التّوراة . قال المهدوى : وكان ذلك بعد أن جاوز البحر وسأله قومه أن يأتيهم بكتابٍ من عند الله فخرج إلى الطّور فى سبعين رجلاً من خيار بنى إسرائيل وصعد الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة[2] .

موسى : اسمٌ أعجمىّ لا ينصرف للعجمة والعلميّة . يقال : هو مركّب من مو وهو

---

(١) البحر المحيط ١٩٩/١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٢٢/١ فقد أفاض فى الحديث عن « واعد » .

(٢) البحر المحيط ٢٠٠/١ وانظر تفسير القرطبى ص ٣٣٧

الماء وشا وهو الشّجر ، فلمّا عرّب أبدلوا شينه سيناً[١] وإنّما سمّى بذلك فيما بلغنا لأنّ أمّه لمّا جعلته فى التّابوت حين خافت عليه من فرعون وألقته فى اليمّ كما أوحى الله إليها . وقيل إنّ اليمّ الّذى ألقته فيه هو النّيل ، دفعته أمواج اليمّ حين أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون فخرج جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدن التّابوت فأخذنه فسمّى باسم المكان الّذى أصيب فيه وكان ذلك المكان فيه ماءٌ وشجر فقيل : موسى ، ماءٌ وشجر[٢] .

أربعين : نصب على المفعول الثّانى لواعدنا[٣] والأربعون فى قول أكثر المفسّرين ذو القعدة وعشرٌ من ذى الحجّة[٤] .

ليلة : كان تفسير الأربعين بليلة دون يوم لأنّ أوّل الشّهر ليلة الهلال ، ولهذا أرّخ باللّيالى ، واعتماد العرب على الأهلّة . فصارت الأيّام تبعاً للّيالى ، أو لأنّ الظّلمة أقدم من الضّوء بدليل : وآيةٌ لهم اللّيل نسلخ منه النّهار[٥] والمعنى : نعطيه عند انقضائها التّوراة[٦] .

ثم اتّخذتم : يحتمل اتّخذ هنا أن تكون متعدّية لواحد ، أى صنعتم عجلاً ، كما قال : واتّخذ قوم موسى من بعده من حليّهم عجلاً جسداً له خوار ، على أحد التّأويلين . وعلى هذا التّقدير يكون ثمّة جملةٌ محذوفة يدلّ عليها المعنى وتقديرها : وعبدتموه إلٰها[٧] .

العجل : ولد البقرة الصّغير الذّكر[٨] والألف واللاّم فى العجل لتعريف الماهيّة إذ لم يتقدّم عهدٌ فيه[٩] وقيل هو مجاز أى عجلاً فى الصّورة والشّكل لأنّ السّامرى صاغه على شكل العجل ، وكان فيما ذكروا صائغاً ، ويكون نسبة الخوار إليه مجازاً قاله

---

(١) البحر المحيط ١/١٩٥ (٢) تفسير الطّبرى ١/٢٢٢

(٣) البحر المحيط ١/١٩٩ وتفسير القرطبىّ ص ٣٣٧

(٤) تفسير القرطبى ص ٣٣٧ وتفسير الطّبرى ١/٢٢٢ وتفسير ابن كثير ١/٩١ وانظر البحر المحيط ١/١٩٩

(٥) البحر المحيط ١/١٩٩ وانظر تفسير القرطبى ص ٣٣٨

(٦) الجلالين (٧) البحر المحيط ١/٢٠٠

(٨) البحر المحيط ١/١٩٧ (٩) البحر المحيط ١/٢٠٠

الجمهور [١] .

من بعده : الظّاهر عود الضّمير إلى موسى [٢] أى اتّخذتموه إلٰهاً من بعد ذهاب موسى إلى الطّور .

وأنتم ظالمون : أبرز هذه الجملة فى صورة ابتداء وخبر لأنّها أبلغ وآكد من الجملة الفعليّة ولموافقة الفواصل [٣] .

العفو : عفو الله جلّ وعزّ عن خلقه . وقد يكون بعد العقوبة وقبلها ، بخلاف الغفران فإنّه لا يكون معه عقوبةٌ البتّة . وكلّ من استحقّ عقوبةً فتُرِكت له فقد عُفِى عنه . فالعفو محو الذّنب ، أى محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم ، مأخوذٌ من قولك : عفت الرّيح الأثر أى أذهبته . وعفا الشّىء كثر . فهو من الأضداد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حتىّ عَفَوْا ﴾ [٤] .

من بعد ذلك : أى من بعد عبادتكم العجل [٥] حين تبتم .

لعلّكم تشكرون : أى عفو الله عنكم لأنّ العفو يقتضى الشّكر قاله الجمهور [٦] وأمّا الشّكر فهو فى اللّغة الظّهور من قوله : دابّةٌ شكور إذا ظهر عليها من السِّمن فوق ما تُعْطَى من العَلَف . وحقيقته الثّناء على الإنسان بمعروفٍ يوليكه ... قال الجوهرىّ : الشّكر الثّناء على المحسن بما أولاكه من المعروف . يقال : شكرته وشكرت له . وباللاّم أفصح . والشّكران خلاف الكفران . وتشكّرت له مثل شكرت له . وروى الترمذىّ وأبو داود عن أبى هريرة عن النّبىّ ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » [٧] .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٠٠

(٢) البحر المحيط ١/٢٠٠ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٢٢ وتفسير القرطبىّ ص ٣٣٨ والجلالين والكشّاف ١/٢١٥

(٣) البحر المحيط ١/٢٠١

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٣٩ وانظر البحر المحيط ١/٢٠١

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٣٩ وانظر البحر المحيط ١/٢٠١

(٦) البحر المحيط ١/٢٠١

(٧) تفسير القرطبى ص ٣٣٩

تبدأ أولى الآيتين الكريمتين بالقول « وإذ » وذلك على غرار آيتين كريمتين سابقتين والمعنى واذكروا إذ واعدنا موسى أربعين ليلة . والآية الكريمة تجمع بين مواعدة الله تعالى موسى عليه السّلام أربعين ليلةً وبين اتّخاذ قومه بنى إسرائيل العجل إلـٰهاً عبدوه من دون الله تعالى فى أثناء غياب موسى عليه السّلام تلك الأربعين اللّيلة وتقرر الآية الكريمة أنّهم كانوا ظالمين بعبادتهم العجل حَيث إنّهم وضعوها فى غير موضعها وصرفوها عن الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد مستحقّها . وكأنّ الآية الكريمة تبيّن كفران بنى إسرائيل الفوريّ للنّعم ومقابلتهم الإحسان بالإساءة . لقد ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه فى طور سيناء[1] وسُرعان ما عبد بنو إسرائيل العجل بتضليلٍ من السّامرىّ . ونستطيع أن نتبيّن أنّ الآية الكريمة تريد أن تلفت الانتباه بشدّة إلى سرعة تحوّل بنى إسرائيل إلى الشّرك رغم وجود هارون عليه السلام بين ظهرانَيْهم ، ووجود موسى عليه السّلام قريباً منهم فى طور سيناء . ولأجل ذلك ترتبط الآية الكريمة بهذا الذّنب العظيم تمام الارتباط منبّهةً إلى فضل الله تعالى العميم على الآباء الّذى نال الأبناء حظّهم منه فيجب عليهم الشكر لله تعالى بامتثال أوامره جلّ وعلا . إنّ الآية الكريمة تبيّن مدى فضل الله تعالى على بنى إسرائيل حيث إنّهم رغم تورّطهم فى الذنب الّذى لا يغفره الله تعالى فقد عفا جلّ وعلا عنهم لعلّهم يشكرون . قال تعالى : ﴿ ثمّ عفونا عنكم من بعد ذلك لعلّكم تشكرون ﴾ ولا زال الخطاب موجّهاً إلى بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ بسبب نجاتهم من قتل بعضهم بعضاً بأمر موسى عليه السّلام بإيحاءٍ من ربّه جلّ وعلا دليلاً على توبتهم من عبادة العجل وإشراكهم مع الله تعالى غيره . وإنّما كانت نجاة المعاصرين من بنى إسرائيل للنبىّ ﷺ لأن الله سبحانه وتعالى قبل توبتهم فأوحى إلى موسى عليه السّلام أن يأمرهم بأن يكفّ بعضهم عن قتل بعض وإلاّ لاستئصلت شأفة بنى إسرائيل ، وفى قبول التّوبة نجاة للباقين ، وإنّ المعاصرين للمصطفى ﷺ من ذرّيّة الباقين النّاجين . ويفهم من القول ﴿ لعلّكم تشكرون ﴾ احتمال الشّكر واحتمال الكفر .

---

(١) انظر البحر المحيط ١/٢٠٠ وتفسير القرطبى ص ٣٣٧

وثمّة العديد من المواضع فى القرآن الكريم الّتى تمّ فيها الحديث عن هذه المواعدة وعن اتّخاذ بنى إسرائيل العجل بتضليلٍ من السّامرىّ. جاء فى سورة الأعراف[١] قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشرٍ فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلةً . وقال موسى لأخيه هارون اخلُفنى فى قومى وأصلح ولا تتّبع سبيل المفسدين ..... واتّخذ قوم موسى من بعده من حُلِيّهِمْ عجلاً جسداً له خُوارٌ . ألم يروا أنّه لا يكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً . اتّخذوه وكانوا ظالمين . ولمّا سُقِط فى أيديهم ورأوا أنّهم قد ضلُّو قالوا لئن لم يرحمنا ربُّنا ويغفر لنا لنكوننّ من الخاسرين . ولمّا رجع موسى إلى قومه غضبان أَسِفاً قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربّكم وألْقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ، قال ابنَ أُمَّ إنّ القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تُشْمِتْ بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظّالمين . قال ربّ اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الرّاحمين . إنّ الّذين اتّخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربّهم وذلّةٌ فى الحياة الدّنيا وكذلك نجزى المفترين . والّذين عملوا السّيّئات ثمّ تابوا من بعدها وآمنوا إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيم ﴾ وجاء فى سورة طه[٢] قوله تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم وواعدناكم جانب الطّور الأيمن[٣] ونزّلنا عليكم المنّ والسّلوى . كلوا من طيّبات ما رزقناكم ولا تطغَوْا فيه فيحلّ عليكم غضبى ، ومن يَحْلِل عليه غضبى فقد هوى . وإنّى لغفّارٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى . وما أعجلك عن قومك[٤] يا موسى . قال هم أولاء[٥] على أثَرى وعجلت إليك ربّ لترضى . قال فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلّهم السّامرىّ . فرجع موسى إلى قومه غضبان أسِفاً . قال يا قومِ ألم يَعِدْكم ربُّكم وعداً حَسَناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلّ عليكم غضبٌ من ربّكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا

---

(١) الآيات ١٤٢ ، ١٤٨ — ١٥٣ (٢) الآيات ٨٠ — ٩٨

(٣) فنؤتِىَ موسى التّوراة للعمل بها . والمعلومات عن هذه الآيات من الجلالين .

(٤) لمجىء ميعاد أخذ التّوراة (٥) أى بالقرب منّى يأتون على أثرى .

موعدك بِمَلْكِنا[١] ولكنّا حمِّلنا أوزاراً[٢] من زينة القوم[٣] فقذفناها[٤] فكذلك ألقى السّامرىّ[٥] فأخرج لهم عِجْلاً جسداً له خوارٌ فقالوا هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسى[٦] أفلا يرون ألاّ يَرْجعُ إليهم قولاً ولا يملك لهم ضَرّاً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هارون من قبلُ يا قوم إنّما فُتنتُمْ به وإنّ ربّكم الرّحمٰنُ فاتّبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتّى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا ألا تتّبعنِ أفَعَصَيْتَ أمرى . قال يابنؤمَّ لا تأخذ بلِحْيتى ولا برأسى إنّى خشيت أن تقول فرّقت بين بنى إسرائيل و لم ترقب قولى . قال فما خطبك يا سامرىّ . قال بَصُرْت بما لم يَبْصُروا به[٧] فقبضت قبضةً من[٨] أثر[٩] الرّسول[١٠] فنبذتها[١١] وكذلك سوّلت[١٢] لى نفسى[١٣] قال فاذهب فإنّ لك فى الحياة أن تقول[١٤] لا مساس[١٥] وإن لك موعداً[١٦] لن تُخْلَفه ، وانظر إلى إلٰهك الّذى ظَلْت عليه عاكفاً لنُحَرِّقنّه ثمّ لننسفنّه فى اليم نسفاً [١٧] إنّما إلٰهكم الله الّذى لا إلٰه إلاّ هو وسع كل شيءٍ علما ﴾ .

---

(١) بقدرتنا أو أمرنا .
(٢) أثقالاً .
(٣) أى حلىّ قوم فرعون استعارها منهم بنو إسرائيل ليلة عرسٍ فبقيت عندهم .
(٤) طرحناها فى النّار بأمر السّامرىّ .
(٥) ألقى السّامرى ما معه من حليّهم ومن التّراب الّذى أخذه من أثر حافر فرس جبريل .
(٦) فنسى موسى ربّه هنا وذهب يطلبه . وانظر تفسير ابن كثير ١٦٧/٣
(٧) أى علمت ما لم يعلموه .
(٨) من تراب .
(٩) أثر حافر فرس
(١٠) الرّسول جبريل .
(١١) ألقيتها فى صورة العجل المصاغ .
(١٢) زيّنت .
(١٣) وألْقِى فيها أن آخذ قبضةً من تراب ما ذكر وألقيها على ما لا روح له يصير له روح ورأيت قومك طلبوا منك أن تجعل لهم إلٰهاً فحدّثتنى نفسى أن يكون ذلك العجل إلٰههم .
(١٤) لمن رأيته .
(١٥) لا تقربنى فكان يهيم فى البريّة وإذا مسّ أحداً أو مسّه أحدٌ حُمّا جميعا .
(١٦) لعذابك .
(١٧) نذريّنه فى هواء البحر .

الآيــة رقــم (٥٣)

قال تعالى : ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلّكم تهتدون ﴾ .

هذه هى النّعمة الخامسة فى سلسلة النّعم الّتى امتنّ الله تعالى بها على بنى إسرائيل ، وهى ثمرة الوعد وهو إتيان موسى التّوراة الّتى بها هــدايتهم وفيها مصالح دنياهـــم وآخرتهم . ويلاحظ أنّ ترتيب النّعم هنا زمانى[١] .

يخاطب ربّ العزّة بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ على غرار ما سبق وللسّبب ذاته . فعلى بنى إسرائيل أن يذكروا نعمة الله تعالى على أسلافهم إذ آتى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام الكتاب وهو التّوراة بإجماع المفسّرين[٢] وتنعت الآية الكريمة هذا الكتاب السّماوىّ بصفةٍ من أهمّ صفاته وهى كونه فرقاناً يفرق به بين الحقّ والباطل والهدى والضّلالة[٣] وعليه يكون لفظ الفرقان من عطف الصّفات[٤] وعطف التّفسير[٥] والمعروف أنّ هذه الصّفة ملازمةٌ لكلّ الكتب السّماويّة وفيها القرآن الكريم . فصفة الفرقان من نصيب التّوراة فى سورة الأنبياء . قال تعالى[٦] : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتّقين . الّذين يخشون ربّهم بالغيب وهم من السّاعة مشفقون ﴾ وهى كذلك من أسماء القرآن الكريم . جاء فى سورة الفرقان[٧] قوله تعالى : ﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ .

وقد عمّقت سورة الأعراف التّرتيب الزّمنىّ لسلسلة الأحداث فبيّنت أنّ إيتاء الله تعالى موسى عليه السّلام التّوراة ثمرة المواعدة . قال تعالى[٨] : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين

---

(١) انظر البحر المحيط ١/٢٠٣

(٢) البحر المحيط ١/٢٠٢ وتفسير القرطبىّ ص ٣٤٠

(٣) البحر المحيط ١/ ٢٠٢ وتفسير القرطبىّ ص ٣٤١ وتفسير ابن كثير ١/٩١ وتفسير الطّبرىّ ١/٢٢٥

(٤) البحر المحيط ١/٢٠٢

(٥) الجلالين

(٦) سورة الأنبياء ٤٨ ، ٤٩

(٧) الآية ١ .

(٨) سورة الأعراف ١٤٢ ــ ١٤٥

ليلةً وأتممناها بعشرٍ فتمّ ميقات ربّه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون اخلُفْنى فى قومى وأصلح ولا تتّبع سبيل المفسدين . ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربُّه قال ربّ أرنى أَنْظُر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى ، فلمّا تجلّى ربُّه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا . فلمّاأفاق قال سبحانك تُبْتُ إليك وأنا أوّل المؤمنين . قال يا موسى إنّى اصطفيتك على النّاس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشّاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كلّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلّ شيءٍ فخذها بقوّةٍ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ﴾ .

وتبيّن الآية الكريمة فى التّذييل الحكمة من إيتاء موسى عليه السّلام التّوراة . ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ « والّذى تقرّر فى النّحو أنّه إن كان متعلَّق لعلّ محبوباً كانت للتّرجّى . فإن كان محذوراً كانت للتّوقّع كقولك : لعلّ العدوّ يقدم »[1] فلعلّ بنى إسرائيل يحقّقون الهدف الحقيقىّ من إنزال التّوراة ، وهو الهدف من إنزال كُلّ الكتب السّماويّة . إنّها كلّها بمثابة النّور الّذى يبدّد ظلمات الشّرك والجهالة ، وهى تهدى إلى الطّريقة الّتى هى أقوم . وقد نص القرآن الكريم فى العديد من المواطن على هذه الصّفة المشتركة بين كلّ الكتب السّماوية الموحى من الله تعالى بها ألا وهى صفة الهداية . جاء فى حقّ التوراة فى سورة المائدة[2] قوله تعالى : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النّبيّون الّذين أسلموا للّذين هادوا والرّبّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا النّاس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ . وجاء فى حقّ الإنجيل فى سورة المائدة[3] كذلك قوله تعالى : ﴿ وقفّينا على آثارهم بعيسى ابنِ مريم مصدّقاً لما بين يديه من التّوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدًى ونورٌ ومصدِّقاً لما بين يديه من التّوراة وهدًى وموعظةً للمتّقين ﴾ . وجاء فى حقّ القرآن الكريم فى سورة الإسراء[4] قوله تعالى : ﴿ إنّ هذا القرآن يَهدى للّتى هى أقوم ويبشِّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيراً . وأنّ الّذين لا يؤمنون

---

(١) البحر المحيط ١/٢٠٣
(٢) الآية ٤٤
(٣) الآية ٤٦
(٤) الآية ٩ ، ١٠

بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما ﴾ .

وإنّ ممّا اشتملت عليه التّوراة نعت المصطفى ﷺ والحثّ على الإيمان به إذا بعث ، وذلك من أنواع هداية هذا الكتاب السّماوىّ . والمعروف أنّ بنى إسرائيل فى مجموعهم رفضوا اتّباع النّبىّ الأمّىّ ﷺ . وعليه يكون بعضهم فقط هو الّذى اهتدى وكثيرٌ منهم فاسقون .

الآيــة رقــم (٥٤)

قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنّه هو التّواب الرّحيم ﴾ .

القوم : اسم جمعٍ لا واحد له من لفظه ، وإنّما واحده امرؤ . وقياسه ألاّ يجمع وشذّ جمعه قالوا : أقوام .... فقيل يختصّ بالرّجال . قال تعالى : ﴿ لا يسخر قومٌ من قوم ﴾ ، ولذلك قابله بقوله : ﴿ ولا نساءٌ من نساء ﴾ . وقال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقــــــومٌ آل حصنٍ أم نساء

وقال آخر :

قومى همُ قتلوا أميم أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى

..... وقيل لا يختصّ بالرجال ، بل ينطلق على الرّجال والنّساء . إنّا أرسلنا نوحاً إلى قومه . ويا قوم مالى أدعوكم إلى النّجاة ..... والقول الأوّل أصوب ، ويكون اندراج النّساء فى القوم على سبيل الاستتباع وتغليب الرّجال . والمجاز خيرٌ من الاشتراك . وسمّى الرّجال قوماً لأنّهم يقومون بالأمور[1] وظاهر الخطاب اختصاصه بمتّخذى العجل . وقيل : يجوز أن يراد به من عبد ومن لم يعبد جعلوا ظالمين لكونهم لم يمنعوهم

---

(١) البحر المحيط ٢٠٣/١ وانظر تفسير القرطبى ص ٣٤١ وتمام بيت زهير من القرطبىّ .

ولم يقاتلوهم [١] .

ظلمتم أنفسكم : أصل الظّلم وضع الشّيء في غير موضعه [٢] .

أنفسكم : استغنى بالجمع القليل عن الكثير . والكثير نفوس . وقد يوضع الجمع الكثير موضع جمع القلّة والقليل موضع الكثرة . قال الله تعالى : ثلاثة قروء . وقال : وفيها ما تشتهيه الأنفس . ويقال لكلّ من فعل فعلاً يعود عليه ضرره : إنّما أسأت إلى نفسك [٣] .

باتّخاذكم : الباء في باتّخاذكم العجل سببيّة [٤] والمعنى باتّخاذكم العجل إلٰها [٥] والبقر مثلٌ في الغباوة والبلادة . في أمثال العرب : أبلد من ثور [٦] .

فتوبوا : يقول الزّمخشريّ [٧] بشأن الفاءات في الآية الكريمة : « فإن قلت : ما الفرق بين الفاءات ؟ قلت : الأولى للتّسبيب لا غير لأنّ الظّلم سبب التّوبة . والثانية للتّعقيب لانّ المعنى فاعزموا على التّوبة فاقتلوا أنفسكم من قِبَل أنّ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم . ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم فيكون المعنى فتوبوا فَأَتْبِعوا التّوبة القتل ، تتمّةً لتوبتكم ، والثّالثة متعلّقة بمحذوف . ولا يخلو إمّا أن ينتظم في قول موسى لهم فتتعلّق بشرطٍ محذوف كأنّه قال : فإن فعلتم فقد تاب عليكم . وإمّا أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات فيكون التّقدير : ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم » على أنّ معنى التّوبة الأوبة ممّا يكرهه الله إلى ما يرضاه من طاعته [٨] .

إلى بارئكم : أي إلى خالقكم . وهو من برأ الله الخلق يبرؤه فهو بارئ . والبريّة الخلق وهي فعيلة بمعنى مفعولة غير أنّها لا تُهْمَز [٩] وفي الجمع بين الخالق والبارئ في قوله : هو الله الخالق البارئ المصوّر ، ما يدلّ على التّباين ، إلاّ إن حُمِل على التّوكيد . وقد فرّق بعض الناس بينهما فقال : البارئ هو المبدع المحدث . والخالق هو المقدّر النّاقل من حالٍ

---

(١) البحر المحيط ١/٢٠٦ وانظر تفسير القرطبي ص ٣٤٢

(٢) تفسير القرطبيّ ص ٣٤٢

(٣) تفسير القرطبيّ ص ٣٤٢

(٤) البحر المحيط ١/٢٠٦

(٥) الجلالين

(٦) الكشّاف ١/٢١٦

(٧) الكشّاف ١/٢١٦

(٨) تفسير الطّبريّ ١/٢٢٧

(٩) تفسير الطّبريّ ١/٢٢٩

إلى حال[١] .

القتل : إزهاق الرّوح بفعل أحدٍ من طعنٍ أو ضربٍ أو ذبحٍ أو خنق أو ما شابه ذلك . وأمّا إذا كان من غير فعلٍ فهو موتُ هلاك[٢] ظاهر هذا أنّه القتل المعروف من إزهاق الرّوح . فظاهره أنّهم يباشرون قتل أنفسهم . والأمر بالقتل من موسى على نبيّنا وعليه السّلام لا يكون إلاّ بوحيٍ من الله تعالى إمّا بكونه كانت التّوراة فى شريعته متقرّرةً بقتل النّفس . وإمّا بكونه أمر ذلك بأمرٍ متجدّد عقوبةً لهؤلاء الّذين عبدوا العجل . والمأمور بقتل أنفسهم عبّاد العجل أو من عبد ومن لم يعبد[٣] قال سفيان بن عيينة : التّوبة نعمةٌ من الله أنعم الله بها على هذه الأمّة دون غيرها من الأمم . وكانت توبة بنى إسرائيل القتل . وأجمعوا على أنّه لم يؤمر كلّ واحدٍ من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده . قال الزّهرىّ : لمّا قيل لهم : فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، قاموا صفّين وقتل بعضهم بعضاً ، حتّى قيل لهم كفّوا . فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحىّ[٤] ولأبى حيّان رأىٌ فى الفاء يقول[٥] : « والفاء فى قوله : فاقتلوا أنفسكم ، إن قلنا إنّ التّوبة هى نفس القتل وإنّ الله تعالى جعل توبتهم قتل أنفسهم فتكون هذه الجملة بدلاً من قوله فتوبوا والفاء كهى فى فتوبوا معها السّببية . وإن قلنا إنّ القتل هو تمام توبتهم فتكون الفاء للتعقيب والمعنى فأتبعوا التّوبة القتل تتمة لتوبتكم » .

ذلكم : إشارةٌ إلى المصدر المفهوم من قوله فاقتلوا لأنّه أقرب أى القتل[٦] .

خير : هى أفعل التّفضيل ، حذفت همزتها شذوذاً فى الكلام فنقص بناؤها فانصرفت[٧] .

لكم عند بارئكم : كرّر البارئ باللّفظ الظّاهر توكيداً ، ولأنّها جملةٌ مستقلّة فناسب

---

(١) البحر المحيط ١/٢٠٤
(٢) البحر المحيط ١/٢٠٤
(٣) البحر المحيط ١/٢٠٧
(٤) تفسير القرطبى ص ٣٤٢
(٥) البحر المحيط ١/٢٠٨
(٦) البحر المحيط ١/٢٠٩
(٧) البحر المحيط ١/٢٠٤

الإظهار ، وللتّنبيه على أن هذا الفعل هو راجحٌ عند الّذى أنشأكم . فكما رأى أنّ إنشاءكم راجح ، رأى أنَّ إعدامكم بهذا الطريق من القتل راجح ، فينبغى التّسليم له فى كل حال وتلقّى ما يرد من قِبَله بالقبول والامتثال(١) .

فتاب عليكم : ظاهره أنّه إخبارٌ من الله تعالى بالتّوبة عليهم ، ولابدّ من تقدير محذوف عطفت عليه هذه الجملة ، أى فامتثلتم ذلك فتاب عليكم . وتكون هاتان الجملتان مندرجتين تحت الإضافة إلى الظّرف الّذى هو إذ فى قوله : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾(٢) والمعنى : قبل توبتكم(٣) .

إنه هو التّوّاب الرّحيم : يعنى الرّاجع لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحبّ من العفو عنه . ويعنى بالرّحيم العائد إليه برحمته المنجية من عقوبته(٤).

تخاطب الآية الكريمة ذرارى بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ ، مذكرةً لهم ، على غرار ما سبق من آياتٍ كريمات ، بإحدى نعم الله تعالى على آبائهم وهى قبول الله تعالى توبتهم من عبادة العجل وعدم استئصال شأفة بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم دليلاً على توبتهم .

والآية الكريمة تبدأ على غرار ما سبقها من آياتٍ كريمات تعدّد نعم الله تعالى على بنى إسرائيل . والمعنى واذكروا إذ قال موسى عليه السّلام بعد أن عاد من ميقات ربّه ومعه ألواح التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إليه ، وانزعاجه لعبادة قومه العجل وهو الولد الذّكر للبقر ، أغبى الحيوانات وأشدّها بلادة ، إذ قال موسى لقومه ، الّذين عبدوا العجل بخاصّة ، يا قوم . ويلاحظ تحنّن موسى عليه السّلام على قومه ورقّته فى مخاطبة قومه السّريعى التّحوّل والتقلّب والتّلوّن . وإنّ من أسباب قبول بنى إسرائيل حكم الله تعالى فيهم وقد عبدوا العجل ، وحملهم على تنفيذ حكم الله تعالى فيهم بأنفسهم ، بأن يمكّن الّذين عبدوا العجل الّذين لم يعبدوه من رقابهم كى يقتلوهم ترجمةً لتوبتهم النّصوح

---

(١) البحر المحيط ٢٠٩/١
(٢) البحر المحيط ٢٠٩/١
(٣) الجلالين
(٤) تفسير الطّبرىّ ٢٢٩/١

إلى الله تعالى ، إنّ من أسباب قبول الحكم مثل هذه الطّريقة الهيّنة اللّيّنة فى مخاطبة بنى إسرائيل : ﴿ يا قوم إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجل ﴾ لقد ظلم قوم موسى عليه السّلام أنفسهم ، حينما وضعوا العبادة فى غير موضعها فعبدوا العجل ، وصرفوها عمّن يستحقّها وحده لا شريك له . لقد اتّخذوا العجل إلٰها معبوداً من دون الله تعالى ، والمعروف أنّ البقر بعامّة عريقٌ فى الغباء والبلادة : فلننظر إلى الدّرك الذّى انحطّ إليه بنو إسرائيل بعبادتهم العجل وينحطّ إليه جنس الإنسان حينما لا يهتدى بنور السّماء . والعجيب فى الأمر أنّا لا زلنا نسمع عن بعض أفراد جنس الإنسان الّذى كرّمه ربه وحمله فى البرّ والبحر والجوّ ورزقه من الطّيّبات ، من يقّدس البقر وما يسفل البقر حتّى الجِرذان[1] ! فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب الّتى فى الصدور » .

والعجيب فى أمر بنى إسرائيل أنّهم تحوّلوا مشركين عابدين للعجل لمجرّد غياب موسى عليه السّلام ، الّذى يعيش بين ظهرانَيْهم ، أربعين ليلة . ويبدو أنّ الانحراف عن الصّراط المستقيم راسخٌ فيهم . أليسوا هم الّذين أنجاهم الله تعالى لتوّهم من فرعون وقومه وجاوز جلّ وعلا بهم البحر فأتَوْا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم فقالوا قبل أن تجفّ أقدامهم من ماء البحر يا موسى اجعل لنا إلٰها نعبده من دون الله تعالى ! قال تعالى[2] : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتَوْا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة . قال إنّكم قومٌ تجهلون ﴾ .

وبعد تقرير موسى عليه السّلام الذّنب الكبير الّذى ارتكبه بنو إسرائيل بعبادة العجل والإشراك مع الله تعالى غيره ، والمعروف أنّ الشّرك هو الذّنب العظيم الّذى لا يغفره الله سبحانه وتعالى لمن مات مشركاً ، يأمرهم عليه السّلام بأن يتوبوا إلى بارئهم جلّ وعلا . وفى ذكر لفظ البارئ ، وهو بمعنى المبدع الموجد من العدم ، تنبيهٌ أليمٌ لأولئك الّذين صرفوا العبادة عن الله تعالى الخالق البارئ ، المصوّر ، إلى ما لا يعقل . ولننظر إلى

---

(١) الجِرذان بكسر الجيم جمع الجُرَذ بضمّ الجيم وفتح الرّاء نوعٌ من الفئران .

(٢) سورة الأعراف ١٣٨

كيفيّة التّوبة على عهد موسى عليه السّلام ، ولنقارن تلك الكيفيّة بكيفيّتها فى حقّ الأمة الإسلاميّة ، أمّة الكتاب العزيز ، أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ رحمة الله تعالى المهداة ونعمته المسداة . إنّها فى حقّ بنى إسرائيل أن يقتل الّذين لم يعبدوا العجل الّذين عبدوا العجل وذلك بأن يمكّنوهم من رقابهم وألاّ يمتنعوا عليهم وألاّ يدافعوا عن أنفسهم بل أن يسلّموا تسليما بينما التّوبة فى حقّ الأمّة الإسلامية أن يندم المسلم على ما فرط منه فى جنب الله تعالى ، وأن يقلع عن المعصية ، وأن ينوى عدم العودة إليها . وإن كان لعبدٍ من عباد الله تعالى حقّ أعطاه حقّه[1] ويستمرّ موسى عليه السّلام مخاطباً قومه : ﴿ ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم ﴾ والمعنى قتل الّذين لم يعبدوا العجل الّذين عبدوه خيرٌ لهم عند بارئهم ، خالقهم من العدم ومصوّرهم . ويلاحظ تكرار لفظ البارئ ، تنبيهاً للقوم على الجرم العظيم الّذى ارتكبوه فى حق الله تعالى الّذى له وحده لا شريك له الخلق والأمر . وقد أمر بعبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له . وقد خالف بنو إسرائيل أمر بارئهم عزّ وجل وتورّطوا فى أكبر الذّنوب .

ويتحول السّياق مخاطباً ذرّيّة القوم المعاصرين للمصطفى ﷺ فى هيئة التّنبيه إلى فضل الله تعالى عليهم بقبول توبة الآباء ، لأنّ فضل قبول التّوبة شمل الذّريّة الّتى ما كانت لتوجد لولا أنّ الله سبحانه وتعالى قبل توبة الآباء وأوحى إلى موسى عليه السّلام بذلك وأن يأمر قومه بأن يكفّوا عن قتل أنفسهم فكان ذلك شهادةً للمقتول وتوبةً للحىّ .

وتختم الآية الكريمة بالتّذييل ذى العلاقة بفحوى الآية الكريمة ألا وهو فضل الله تعالى التّوّاب الرّحيم على بنى إسرائيل ﴿ إنّه هو التّوّاب الرّحيم ﴾ ويلاحظ أنّنا بصدد صيغتى المبالغة فعّال وفعيل . كما يلاحظ سبر كلّ من الصّيغتين وفق ترتيب المعنيين الموافقين لهما فى صدر الآية الكريمة . فالمطلوب من بنى إسرائيل أن يتوبوا إلى بارئهم جلّ وعلا بأن يقتلوا أنفسهم ومع هذا المعنى يتمشّى القول « التّوّاب » وقد قبل الله تعالى ، مظهراً من مظاهر رأفته بعباده ورحمته ، توبة بنى إسرائيل . وقد تجلّت الرّحمة فى قبول التّوبة الّتى كان الدّليل عليها أمرهم بالكفّ عن قتل بعضهم بعضاً . ولولا رحمة الله تعالى ببنى

---

(١) انظر فى شروط التّوبة مثلاً رياض الصالحين ص ١٠ فما بعدها .

إسرائيل لفنوا عن بكرة أبيهم ولغَدَوْا كأمس الدّابر .

ومن سور القرآن الكريم الّتى أفاضت فى الحديث عن اتخاذ بنى إسرائيل العجل سورة الأعراف(١) وسورة طه(٢) على نحو ما مرّ بنا .

الآيــة رقــم (٥٥ ، ٥٦)

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون . ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون ﴾ .

« قال ابن زيد : قال لهم موسى لمّا رجع من عند ربّه بالألواح قد كتب فيها التّوراة فوجدهم يعبدون العجل فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم فقال : إنّ هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمره الّذى أمركم به ونهيه الّذى نهاكم عنه فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ، لا والله حتّى نرى الله جهرة ، حتّى يطلع الله علينا فيقول هذا كتابى فخذوه فما له لا يكلّمنا كما يكلّمك أنت يا موسى فيقول هذا كتابى فخذوه ؟ وقرأ قول الله تعالى : ﴿ لن نؤمن لك حتىّ نرى الله جهرة ﴾ . قال : فجاءت غضبةٌ من الله عزّ وجلّ فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون . قال . ثمّ أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله تعالى : ﴿ ثم بعثناكم بعد موتكم لعلّكم تشكرون ﴾ . فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله فقالوا : لا . فقال : أىّ شىءٍ أصابكم ؟ قالوا : أصابنا أنّا متنا ثمّ حيينا . قال : خذوا كتاب الله . قالوا : لا . فبعث الله تعالى ملائكة فنتقت الجبل فوقهم »(٣) ويعلّق ابن جرير الطّبرىّ على الآراء المتعدّدة فى الموضوع بالقول(٤) : « فالصّواب من القول فيه أن يقال : إن الله جلّ ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى أنّهم قالوا يا موسى لن نؤمن لك حتىّ نرى الله جهرة كما أخبر عنهم أنّهم قالوه » .

---

(١) الآيات ١٤٨ ــ ١٥٣ (٢) الآيات ٨٣ ــ ٩٨

(٣) تفسير الطّبرىّ ١/٢٣٢ وانظر بقيّة الآراء فى ص ٢٣١ و ٢٣٢ وانظر البحر المحيط ١/٢١٠ وتفسير ابن كثير ١/٩٣ وتفسير القرطبى ص ٣٤٤

(٤) تفسير الطّبرىّ ١/٢٣٣

لن نؤمن لك : قيل معناه لن نصدّقك فيما جئت به من التّوراة و لم يريدوا نفى الإيمان به بدليل قولهم « لك » و لم يقولوا « بك » نحو : وما أنت بمؤمنٍ لنا أى بمصدق[١] .

حتّى هنا حرف غاية . أخبروا بنفى إيمانهم مستصحبًا إلى هذه الغاية ، ومفهومها أنّهم إذا رأوا الله جهرةً آمنوا[٢] .

نرى الله : الرّؤية هنا هى البصرّية وهى الّتى لا حجاب دونها ولا ساتر[٣] .

جهرة : مصدر فى موضع الحال ومعناه علانية . وقيل عياناً قاله ابن عبّاس . وأصل الجهر الظّهور . ومنه الجهر بالقراءة إنّما هو إظهارها . والمجاهرة بالمعاصى المظاهرة بها . ورأيت الأمير جِهاراً وجهرةً أى غير مستترٍ بشىء . وقرأ ابن عبّاس جهرة بفتح الهاء ، وهما لغتان مثل : زهْرة وزهَرة .... وأكّد بالجهر فرقاً بين رؤية العيان ورؤية المنام[٤] وفتح عين هذا النّحو مسموع عند البصريّين مقيسٌ عند الكوفيّين[٥] وقد استفاضت الأحاديث الصّحيحة الثّابتة فى رؤية الله تعالى ، فوجب المصير إليها . وهذه المسألة من أصعب مسائل أصول الدّين[٦] .

فأخذتكم الصّاعقة : أى استولت عليكم وأحاطت بكم . وأصل الأخذ القبض باليد[٧] .

الصّاعقة : ما صعقهم أى أماتهم . قيل نارٌ وقعت من السّماء فأحرقتهم.وقيل : صيحة جاءت من السّماء . وقيل : أرسل الله جنوداً سمعوا بحسّها فخرّوا صعقين ميتين يوماً وليلة[٨] وأجمع المفسّرون على أن المدّة من الموت أو الصّعق كانت يومًا وليلة[٩] ويفهم من القرآن الكريم أنّ الصّاعقة هى الصّيحة . جاء فى سورة الحاقة ، بشأن ثمود قوله

---

(١) البحر المحيط ١/٢١٠
(٢) البحر المحيط ١/٢١٠
(٣) البحر المحيط ١/٢١٠
(٤) تفسير القرطبىّ صـ ٣٤٤ وانظر الكشّاف ١/٢١٦ والبحر المحيط ١/٢٠٤ و ٢١٠
(٥) البحر المحيط ١/٢٠٤
(٦) البحر المحيط ١/٢١١
(٧) البحر المحيط ١/٢١١
(٨) الكشّاف ١/٢١٧
(٩) البحر المحيط ١/٢١١

تعالى[١] : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ والمراد بالطّاغية الصّيحة المجاوزة القدر فى الارتفاع[٢] وجاء فى سورة الذّاريات[٣] قوله تعالى : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتّى حين . فعتَوْاعن أمر ربّهم فأخذتهم الصّاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيامٍ وما كانوا منتصرين ﴾ .

وأنتم تنظرون : جملة فى موضع الحال[٤] .

ثمّ : دلّ العطف بثمّ على أنّ بين أخذ الصّاعقة والبعث زماناً تتصوّر فيه المهلة والتّأخير هو زمان ما نشأ عن الصّاعقة من الموت أو الغشى[٥] .

بعثناكم : أى أحيينا كم[٦] والبعث الإحياء . وأصله الإثارة قال الشّاعر :

أنيخها ما بدا لى ثمّ أبعثها ... كأنّها كاسرٌ فى الجوّ فتخاء

وقال آخر :

وفتيان صدقٍ قد بعثت بسحرةٍ ... فقاموا جميعاً بين عانٍ ونشوان

وقيل : أصله الإرسال ، ومنه ولقد بعثنا فى كلّ أمّةٍ رسولا . وتأتى بمعنى الإفاقة من الغشى أو النّوم . وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم . والقدر المشترك بين هذه المعانى هو إزالة ما يمنع عن التّصرّف[٧] قال قتادة : ماتوا وذهبت أرواحهم ثمّ ردّوا لاستيفاء آجالهم[٨] .

من بعد موتكم : الموت هنا ظاهره مفارقة الرّوح الجسد . وهذا هو الحقيقة . وكان إحياؤهم لأجل استيفاء أعمارهم[٩] .

تبين أولى الآيتين الكريمتين أحد الذّنوب الكبار الّتى ارتكبها بنو إسرائيل على عهد موسى عليه السّلام والعقاب الفورىّ الّذى حلّ بهم ، وتبيّن ثانيتهما إحدى نعم الله تعالى

---

(١) سورة الحاقّة ٥

(٢) هذا ما يفهم من مشتقّات المادّة واستعمالاتها انظر مثلاً اللّسان « طغى » .

(٣) الآيات ٤٣ ــ ٤٥ (٤) تفسير القرطبىّ ٣٤٥ والبحر المحيط ٢١٢/١

(٥) البحر المحيط ٢١٢/١ (٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٥

(٧) البحر المحيط ٢٠٥/١ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢٣٠/١

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٥ (٩) البحر المحيط ٢١٢/١

الكبار عليهم بإحيائهم بعد موتهم .

تبدأ الآية الكريمة الأولى ، على غرار الآيات الكريمات السّابقات الّتى يستهلّ بها الحديث عن إحدى النّعم على بنى إسرائيل ، وذلك بالقول «وإذ» والمراد واذكروا إذ قلتم . ولننظر إلى الطّريقة الفظّة الّتى يخاطب بها بنو إسرائيل نبىّ الله تعالى ورسوله وكليمه موسى عليه السّلام . إنّها الطّريقة الّتى تدلّ على سوء أدب القوم وبلادة إحساسهم . إنّهم يخاطبونه كما لو كان أىّ فرد عادىّ فيهم « يا موسى » بدلاً من أن يخاطبوه فى طريقةٍ كريمة لطيفةٍ منبّهةٍ إلى إحدى نعم الله تعالى عليه واصطفائه بها كالنّبوة أو الرّسالة أو تكليم الله تعالى إيّاه . ولننظر فى المقابل إلى تأديب الله تعالى أفراد هذه الأمة المحمّدية فى مخاطبتها الرّسول الكريم . جاء فى سورة النّور[1] قوله تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرّسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ وليس سوء أدب بنى إسرائيل ووقاحتهم فى مخاطبتهم رسول الله تعالى إليهم فى هذه الطّريقة الفظة إلاّ توطئةً لبلاءٍ كبير وشرٍّ مستطير . فهاهم أولاء يصرّحون له ، وهم الّذين يعلمون أنّه رسول ربّ العالمين إليهم ، بأنّهم لن يؤمنوا له ، ولن يصدّقوه فيما جاء به من التّوراة ، وما جاء فيها من تكاليف ، وبكون ربّه جلّ وعلا قد كلّمه ، حتى يروا هم أنفسهم الله تعالى عِياناً وعلانيةً بأعينهم الّتى لا يحول بينها وبين الله سبحانه وتعالى حجابٌ ولا ساتر ، وفى اليقظة لا فى المنام !

لننظر إلى تعنّت بنى إسرائيل . إنّهم على علم ، بناءً على قصّ موسى عليه السّلام عليهم ما جرى له حينما ذهب عليه السّلام إلى ميقات ربّه ، بأنّ منتهى ما حظى به من ربّه جلّ وعلا أن كلّمه . وحينما طلب من ربّه جلّ وعلا أن يكرمه بأن ينظر إلى وجهه الكريم جلّ وعلا كان الجواب حاسماً كما جاء فى سورة الأعراف ﴿ لن ترانى ﴾ قال تعالى[2] : ﴿ ولمّا جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرنى أنظر إليك . قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف ترانى . فلما تجلّى ربُّه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا . فلمّا أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين ﴾ . فماذا طلب بنو

---

(١) الآية ٦٣ (٢) سورة الأعراف ١٤٣

إسرائيل من نبيّهم موسى عليه السّلام ؟ أبعد ممّا يخطر على كلّ بال . إنّهم تجاوزوا ما خصّ الله تعالى به موسى عليه السّلام من تكليم الله تعالى إيّاه إلى طلب ما لم يتحقّق لموسى عليه السّلام كليم الله تعالى وما لا يطيقه لو تحقّق افتراضًا . أن يروا الله سبحانه وتعالى . لا ، أن يروه جلّ وعلا بأعين رءوسهم عياناً وعلانيةً ومباشرة دون أىّ ساتر أو حجاب . جاء فى سورة الشّورى[1] قوله تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجابٍ أو يُرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنّه علىٌّ حكيم ﴾ .

والعجيب فى أمر بنى إسرائيل أنّهم يطلبون مثل هذا الطّلب العجيب وهم المصدّقون برسالة موسى عليه السّلام . والملاحظ أنّ طلباً قريباً من هذا الطلب إنّما صدر على عهد المصطفى ﷺ من المكذّبين برسالته ﷺ ، المكذّبين للقرآن الكريم ، المنكرين للبعث . جاء فى سورة الفرقان[2] قوله تعالى : ﴿ وقال الّذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنْزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا . لقد استكبروا فى أنفسهم وعَتَوْاعتوّاً كبيرا ﴾ . ويلاحظ التوّطئة الّتى جرت على ألسنة الكافرين بين يدى طلبهم أن يروا الله تعالى . لقد جعلوا نزول الملائكة عليهم بتصديق المصطفى ﷺ توطئةً لطلبهم أن يروا ربّهم جلّ وعلا . ووراء ذلك يتبيّن الفرق الشّاسع بين التّعبيرين . ويتّضح ذلك من اشتراط بنى إسرائيل رؤية الله تعالى كى يصدّقوا موسى عليه السّلام بينما جاءت « لولا » الدّالّة على التحضيض والعرض فى حقّ كفّار مكّة.هذا إلى طلب كفّار مكّة الرؤية مجرّدة ، واشتراط بنى إسرائيل الرّؤية علانية . إنّه بمقارنة بنى إسرائيل بالكفّار يتّضح أنّ بنى إسرائيل هم الأسوأ .

لقد استحق بنو إسرائيل العقاب الفورىّ من الله تعالى والأخذ الشّديد . وقد كان العقاب ذا علاقة بطلبهم أن يروا الله تعالى بأعينهم . لقد رأوا الصّاعقة الّتى أهلكتهم رأى العين . قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون ﴾ لقد أرسل الله سبحانه وتعالى ناراً من السّماء ذات صوتٍ شديدٍ فأزعجتهم إزعاجاً شديداً فى طريقها إليهم لإهلاكهم السّريع ، وأخذهم

---

(١) الآية ٥١ (٢) الآية ٢١

الشّديد ، وهم ينظرون إليها ويرونها رأى العين .

وإكراماً منه تعالى لموسى عليه السّلام الّذى دعاه جلّ وعلا وألحّ فى الدّعاء أن يعيد الحياة إليهم مرّةً أخرى ، بعثهم الله تعالى الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء من بعد موتهم المحقّق لعلّهم يشكرون لله تعالى هذه النّعمة الّتى شملت ذراريهم الّذين يتوجّه الخطاب إليهم ، لأنّ واجب الشّكر لله تعالى عمل الأحياء ، فعلى بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ بخاصّة ، الأحياء فى كلّ عصر بعامّة ، أن يشكروا لله تعالى هذه النّعمة وقد أعاد الحياة إلى هلكى بنى إسرائيل كى يستوفوا آجالهم وكى يقدّموا لأنفسهم . ويكون الشّكر باتّباع الرّسول النّبىّ الأمّىّ الّذى يجده أهل الكتاب مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل . « أجمع المفسرون على أنّ المدّة من الموت أو الصّعق كانت يوماً وليلةً »[1] وهى مدّة ليست بالقصيرة فى ذلك الظّرف العصيب . وقد أوحى بطول تلك الفترة حرف العطف « ثمّ » الّذى صدّرت به الآية الكريمة . والمعروف أنّ شكر بنى إسرائيل قليل .

الآيــة رقــم (٥٧)

قال تعالى : ﴿ وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المنّ والسّلوى كلوا من طيّبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

ذكر المفسّرون أنّ هذا جرى فى التّيه بين مصر والشّام لمّا امتنعوا من دخول مدينة الجبّارين وقتالهم وقالوا لموسى : فاذهب أنت وربّك فقاتلا ، فعوقبوا فى ذلك الفَحْص[2] أربعين سنةً يتيهون فى خمسة فراسخ أو ستّة[3] وقد بيّنت سورة المائدة أبعاد هذه الملابسات أتمّ بيان .

---

(١) البحر المحيط ١/٢١١

(٢) كلّ موضع يُسكن . القاموس « فحص » .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٦

قال تعالى[١] : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة الّتى كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارينَ وإنّا لن ندخلها حتّى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون . قال رجلان من الّذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون ، وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون . قال ربّ إنّى لا أملك إلاّ نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنّها محرّمةٌ عليهم أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ .

وظلّلنا عليكم : عطف على قوله : ثمّ بعثناكم من بعد موتكم . فتأويل الآية ثمّ بعثناكم من بعد موتكم وظلّلنا عليكم الغمام[٢]أى جعلناه عليكم كالظلة[٣] والسّحابة ظلّة لما يحصل تحتها من الظلّ . ومنه قيل : السّلطان ظلّ الله فى الأرض[٤] والمكان الّذى أظلتهم فيه الغمامة كان فى التّيه بين الشّام ومصر لمّا شكوا حرّ الشّمس[٥] .

والغمام جمع غمامة كسجابة وسحاب قاله الأخفش سعيد[٦] هو السّحاب وقيل ما ابيضّ من السّحاب[٧] وسمّى غماماً لأنّه يغمّ وجه السّماء أى يستره . ومنه الغمّ .... والغُمّة .... وغمّ الهلال ستر . والنّبت الغميم هو الّذى يستر ما يسامته من وجه الأرض[٨] وكلّ مغطّى تسمّيه العرب مغموماً[٩] .

المنّ : اسم جنسٍ لا واحد له من لفظه .... مثل الخير والشّرّ قاله الأخفش[١٠] وفى

---

(١) سورة المائدة ٢٠ ــ ٢٦
(٢) تفسير الطّبرى ١/٢٣٣
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٦
(٤) البحر المحيط ١/٢٠٥
(٥) البحر المحيط ١/٢١٤ وانظر تفسير ابن كثير ١/٩٤
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٦ وانظر البحر المحيط ١/٢٠٥
(٧) البحر المحيط ١/٢٠٥
(٨) البحر المحيط ١/٢٠٥
(٩) تفسير الطّبرى ١/٢٣٣
(١٠) تفسير القرطبى ص ٣٤٧

المنّ الّذى أنزله الله على بنى إسرائيل أقوال . ما يسقط على الشّجر أحلى من الشُّهْد وأبيض من الثّلج . وهو قول ابن عبّاس والشّعبىّ . أو صمغة طيّبة حلوة وهو قول مجاهد . أو شراب كان ينزل عليهم يشربونه بعد مزجه بالماء وهو قول الرّبيع بن أنس وأبى العالية . أو عسل كان ينزل عليهم وهو قول ابن زيد ..... أو التّرنجبين[١] وعليه أكثر المفسّرين[٢] وكان المنّ ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس[٣] .

والسّلوى : عن ابن عبّاس السّلوى طائرٌ يُشْبه السُّمانَى أو هو السُّمانَى[٤] واختلف فى السّلوى هل هو جمع أو مفرد ؟ فقال الأخفش : جمعٌ لا واحد له من لفظه مثل الخير والشّر . وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته كما قالوا دِفْلِى[٥] للواحد والجماعة . وسُمانى وشكاعى[٦] فى الواحد والجمع[٧] أو اسم جنس واحدها سلواة قاله الخليل والألف فيها للإلحاق لا للتّأنيث[٨] كان الله سبحانه وتعالى يبعث ريح الجنوب فتحشر عليهم السّلوى وهى السُّمانى فيذبح الرّجل منها ما يكفيه[٩] والمنّ والسّلوى من أشرف المأكول إذ جمع بين الغذاء والدّواء بما فى ذلك من الحلاوة الّتى فى المن ، والدّسم الّذى فى السّلوى ، وهما مقمعا الحرارة ومثيرا القوّة للبدن[١٠] .

كلوا : فيه حذف تقديره : وقلنا كلوا . فحذف اختصاراً لدلالة الظّاهر عليه[١] والأمر هنا أمر إباحة[٢] .

---

(١) التّرنجبين بتشديد الراء وتسكين النّون ذكره النّحّاس ويقال الطّرنجبين بالطّاء . انظر تفسير القرطبىّ ص ٣٤٦ والشّهد بصمّ الشّين المشدّدة وفتحها العسل ما دام لم يعصر من شمعه .

(٢) البحر المحيط ١/٢١٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٣٣ وتفسير ابن كثير ١/٩٥

(٣) البحر المحيط ١/٢١٤

(٤) انظر تفسير ابن كثير ١/٩٦ وانظر تفسير القرطبىّ ٣٤٧

(٥) كذكرى شجر مرّ أخضر حسن المنظر يكون فى الأدوية .

(٦) الشّكاعى كحبارى وقد تفتح من دقّ النّبات وهى دقيقة العيدان صغيرة خضراء والنّاس يتداوون بها .

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٨

(٨) البحر المحيط ١/٢٠٥ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٣٤

(٩) الكشّاف ١/٢١٧ (١٠) البحر المحيط ١/٢١٦

كلوا . فحذف اختصاراً لدلالة الظّاهر عليه[١] والأمر هنا أمر إباحة[٢] .

من طيّبات : الطّيّبات هنا قد جمعت الحلال واللّذيذ[٣] .

وما فى قوله ما رزقناكم موصولة . والعائد محذوف أى ما رزقناكموه[٤] .

وما ظلمونا : يقدّر قبله فعصوا و لم يقابلوا النّعم بالشّكر[٥] .

هذه الآية الكريمة معطوفةٌ على سابقتها فلا يبدأ بها معنىً مستقلّ على غرار الآيات الكريمات الّتى تبدأ بالقول « وإذ » . والمعنى ثمّ بعثناكم من بعد موتكم وظلّلنا عليكم الغمام . وبهذا يتبيّن ترتيب الأحداث ترتيباً زمنيّاً كما يتبيّن أنّ الله سبحانه وتعالى ظلّل على بنى إسرائيل الغمام فى التّيه وأنزل عليهم المنّ والسّلوى بعد أن رفضوا دخول الأرض المقدّسة ومدينة الجبّارين على نحو ما بيّنت ذلك آيات سورة المائدة .

إن ربّ العزّة يمتنّ على بنى إسرائيل قوم موسى عليه السّلام بكونه جلّ وعلا رغم عقابه لهم بأن يتيهوا فى شبه جزيرة سيناء أربعين سنة عقاباً لهم على جبنهم عن مهاجمة الأعداء ونكوصهم على أدبارهم رغم وعد موسى عليه السّلام لهم ، وهم الّذين يعلمون أنّه رسول ربّ العالمين إليهم وموحىً إليه من الله تعالى ، بأنّهم بمجرّد دخولهم باب مدينة الجبّارين فى الأرض المقدّسة فإنّهم بإذن الله تعالى غالبون ومنتصرون ، إنّ ربّ العزّة يمتّن على بنى إسرائيل بكونه جلّ وعلا ، وقد أحرقت حرارة الشمس بنى إسرائيل الّذين آلمهم عضّ الجوع لهم ، قد ظلّل عليهم الغمام ، بأن جعل السّحاب الأبيض الخفيف فوقهم كأنّه ظلّةٌ يستظلون بها من حرارة الشّمس ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى . أمّا المنّ فصمغةٌ حلوة تسقط على الشّجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس أحلى من الشُّهد وأبيض من العسل . وأمّا السّلوى فطائرٌ يشبه السُّمانى أو هو السُّمانى ذاته ، كان رب العزّة يبعث ريح الجنوب فتحشر عليهم ذلك النّوع من الطّير فيصطاد الواحد منهم ويذبح ما شاء

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٨ (٢) البحر المحيط ١/٢١٤

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٨

(٤) البحر المحيط ١/٢١٥ وتفسير الطّبرى ١/٢٣٧ .

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٤٨ وانظر الطبرىّ ١/٢٣٧

منه بإرادة الله تعالى . ويقال لبنى إسرائيل : كلوا من طيبات ما رزقناكم . وأى طعامٍ أطيب من هذه الصّمغة الّتى تشبه العسل والّتى هى أبيض من الثّلج والّتى تنزل كلّ يومٍ من طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس ، وهى تجمع بين الطّعام والحلاوة والدّواء . وأىّ طعامٍ أطيب من لحم السّمانى الذّى ينتقى الواحد منهم ما شاء منه فيذبح ويأكل طعاماً هنيئاً مريئاً لذيذاً جديدا ؟ فهل رعى بنو إسرائيل الّذين يتقلّبون وهم فى التّيه ، فى نعم الله تعالى وبين ظهرانَيْهم موسى عليه السّلام رسول الله تعالى إليهم . هل رعى بنو إسرائيل تلك النّعم الّتى يعلمون أنّها لا تتغيّر بل تزداد بالشكر لله تعالى عليها أمّا بكفران تلك النّعم فإنّهم يستحقّون عذاب الله الشّديد ؟ الحقيقة أنّ بنى إسرائيل لم يرعوا تلك النّعم و لم يقوموا بما يجب عليهم من شكرها بل كفروها . وبما أنّ عاقبة كفران النّعم الوخيمة عائدةٌ عليهم وحدهم ، فالله سبحانه وتعالى لا يزيد فى ملكه طاعة الخلائق ولا ينقص ملكه عصيانهم ، لذا فإنّهم بكفرانهم النّعم إنّما ظلموا أنفسهم فاستحقّوا عقاب الله تعالى الشّديد ، وعذابه الأليم . يقول الطبرى[1] : « عن ابن عبّاس وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . قال يضرّون . وقد دللنا فيما مضى على أنّ أصل الظّلم وضع الشّىء فى غير موضعه بما فيه للكفاية فأغنى عن إعادته . وكذلك ربّنا جلّ ذكره لا تضرّه معصية عاص ولا يتحيّف خزائنه ظلم ظالم ، ولا تنفعه طاعة مطيع ، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل . بل نَفْسَه بظلم الظّالم ، وحظَّها يبخس العاصى وإيّاها ينفع المطيع وحظَّها يصيب العادل » ويقارن ابن كثير بين تعنّت بنى إسرائيل وبين طاعة أتباع محمّد بن عبد الله ﷺ . يقول[2] : « أى أمرناهم بالأكل ممّا رزقناهم وأن يعبدوا كما قال : ﴿ كلوا من رزق ربّكم واشكروا له ﴾ . فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم . هذا مع ما شاهدوه من الآيات البيّنات ، والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات . ومن هٰهنا تتبيّن فضيلة أصحاب محمّد ﷺ ورضى عنهم ، على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنّتهم ، مع ما كانوا معه فى أسفاره وغزواته . منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحرّ

---

(١) تفسير الطبرى ١/٢٣٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٩٧

الشّديد والجهد ، لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً على النّبيّ ﷺ ، لكن لمّا أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشّاة فدعا الله فيه وأمرهم ، فملئوا كل وعاء معهم . وكذا لمّا احتاجوا إلى الماء ، سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملئوا أسقيتهم ، ثمّ نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر ، فهذا هو الأكمل فى اتّباع الشّىء مع قدر الله مع متابعة الرّسول ﷺ » وقارن بين موقف الجبناء من بنى إسرائيل حينما لم يستحيوا من القول لموسى عليه السّلام رسول الله تعالى إليهم : ﴿ فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون ﴾ ويلاحظ أن جملة قعد تستعمل فى اللّغة العربيّة فى حقّ من كان واقفاً فثمّة إشارة إلى الاتجاه من أعلى إلى أسفل ، وثمّة إيحاء برغبة بنى إسرائيل فى الإخلاد إلى الكسل والرّاحة فى القول على لسانهم ﴿ إنا هٰهنا قاعدون ﴾ قارن بين موقف هؤلاء الجبناء وبين موقف أصحاب بطل الأبطال محمّد بن عبد الله ﷺ وتلاميذه الأبطال الشّجعان المطيعين ، حينما توجّه المصطفى ﷺ من المدينة المنوّرة لملاقاة كفّار قريش فى بدر وقد أتاه ﷺ الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم . جاء فى السّيرة النّبوية لابن هشام[1] : « فاستشار النّاس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكرٍ الصّدّيق فقال وأحسن . ثمّ قام عمر بن الخطّاب فقال وأحسن . ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله : امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : فاذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هٰهنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحقّ لو سِرْت بنا إلى بَرْك الغِماد[2] لجالدنا معك مَنْ دونه حتّى تبلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به . ثمّ قال رسول الله ﷺ : أشيروا علىّ أيّها النّاس . وإنّما يريد الأنصار ، وذلك أنّهم عَدَدُ النّاس ، وأنّهم حين بايعوه بالعقبه قالوا : يا رسول الله : إنّا بُرَآء مِنْ ذِمامك حتىّ تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمّتنا نمنعك ممّا نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله ﷺ

---

(١) ٢/٢٥٣ ، ٢٥٤

(٢) برك الغماد : موضع بناحية اليمن ويقال هو أقصى حجر .

يتخوّف ألاّ تكون الأنصار ترى عليه نَصْرَهُ إلاّ ممّن دَهِمه[1] بالمدينة من عدوّه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم . فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد ابن معاذ : والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله . قال : أجل . قال : فقد آمنّا بك وصدّقناك ، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة . فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك . فوالّذى بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخُضْتَه لخضناه معك ما تخلّف منّا رجلٌ واحد . وما نكره أن تلقى بنا عَدُوَّنا غداً ، إنّا لَصُبُرٌ فى الحرب ، صُدُقٌ فى اللقاء ، لعلّ الله يريك منّا ما تَقَرُّ به عينُك ، فسِرْ بنا على بركة الله . فَسُرّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشّطه ذلك ثمّ قال : سيروا وأبشروا فإنّ الله تعالى قد وعدنى إحدى الطّائفتين . والله لكأنّى الآن أنظُر إلى مصارع القوم » ثمّ كان يوم بدر ، يوم الفرقان الّذى نصر الله تعالى فيه الفئة الّتى تقاتل فى سبيله جل وعلا على الفئة الكافرة .

الآيــة رقــم (٥٨ ، ٥٩)

قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغَداً وادخلوا الباب سجّداً وقولوا حِطّةٌ نغفر لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين . فبدّل الّذين ظلموا قولاً غير الّذى قيل لهم فأنزلنا على الّذين ظلموا رجزاً من السّماء بما كانوا يفسقون ﴾ .

نكص بنو إسرائيل عن دخول مدينة الجبّارين فحرّمها الله تعالى عليهم وضرب عليهم أن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة ، وفى تلك الأثناء توفّى هارون عليه السّلام ، ثمّ بعده بمدّة ثلاث سنين توفى موسى الكليم عليه السّلام وأقام الله تعالى فيهم يوشع بن نون عليه السّلام نبيّاً خليفةً عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بنى إسرائيل هناك فى تلك المدّة ، ونشأ جيلٌ جديدٌ من بنى إسرائيل لم يعهد ذلّ فرعون وآله . فلمّا انقضت المدّة خرج يوشع بن نون عليه السّلام بسائر بنى إسرائيل ، وبخاصّة أبناء الجيل الثّانى ، فقصد بهم بيت

---

(١) دهمه أى فجأة يقال ، دهمتهم الخيل إذا فاجأتهم على غير استعداد .

المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر فيما يقال . وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بنى إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجّداً وهم يقولون : حطّة أى حطّ عنّا ذنوبنا فبدّل الّذين ظلموا قولاً غير الّذى قيل لهم(١) .

وإذ قلنا : القائل هو الله تعالى(٢) وقد عرفنا أنّ ذلك تمّ على لسان يوشع عليه السّلام .

ادخلوا : هذا أحد أوامر أربعةٍ فى الآية الكريمة ادخلوا . فكلوا . وادخلوا وقولوا .

هذه : فى قوله هذه القرية دليلٌ على أنّهم قاربوها وعاينوها لأنّ « هذه » إشارةٌ لحاضرٍ قريب(٣) .

القرية : المدينة من قريت أى جمعت . سمّيت بذلك لأنّها مجتمع النّاس على طريق المساكنة(٤) ومنه قريت الماء فى الحوض أى جمعته . واسم ذلك الماء قِرى بكسر القاف مقصور . وكذلك ما قُرِى به الضّيف قاله الجوهرىّ(٥) والقرية هنا بيت المقدس فى قول الجمهور . قاله ابن مسعود وابن عبّاس وقتادة والسّدّى والرّبيع وغيرهم(٦) .

فكلوا : أمر إباحة(٧) .

رغداً : كثيراً واسعاً(٨) وهذه اللّفظة سبق أن جاءت فى الآية الكريمة الخامسة والثّلاثين . قال تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشّجرة فتكونا من الظّالمين ﴾ ويعلّق أبو حيان على تقديم الرّغد فى الآية الكريمة الخامسة والثّلاثين وتأخيره فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . يقول(٩) : « وأما تقديم الرّغد هناك فظاهر فإنّه من صفات الأكل أو الآكل ، فناسب أن يكون قريباً من العامل فيه ولا يؤخّر عنه ويفصل بينهما بظرف وإن لم يكن فاصلاً مؤثراً

---

(١) انظر هنا تفسير ابن كثير ١/٩٨ و ٢/٤٠

(٢) البحر المحيط ١/٢٢٠

(٣) البحر المحيط ١/٢٢١

(٤) البحر المحيط ١/٢١٧

(٥) تفسير القرطبىّ ٣٤٩

(٦) البحر المحيط ١/٢٢٠ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٣٤٩ وتفسير ابن كثير ١/٩٨

(٧) تفسير القرطبى ص ٣٤٩

(٨) تفسير القرطبى ٣٤٩

(٩) البحر المحيط ١/٢٢١

..... وأمّا هنا فإنّه أُخّر لمناسبة الفاصلة بعده . ألا ترى أنّ قوله : فكلوا منها حيث شئتم رغداً وقوله : وادخلوا الباب سجّداً فيهما سجعتان متناسبتان . فلهذا والله أعلم كان هذان التركيبان على هذين الوضعين » .

والباب الّذى أمروا بالدّخول منه أحد أبواب بيت المقدس ويُدْعَى الآن باب حطّة قاله ابن عباس(١) .

سجّدا : نصب على الحال من الضّمير فى ادخلوا . قال ابن عبّاس : معناه ركّعا . وعبّر عن الرّكوع بالسّجود كما يعبّر عن السّجود بالرّكوع . قيل لأنّ الباب كان صغيراً ضيّقاً يحتاج الدّاخل فيه إلى الانحناء ..... وقيل : معناه خضّعًا متواضعين ..... وقيل معناه السّجود المعروف من وضع الجبهة على الأرض . والمعنى ادخلوا ساجدين شكراً لله تعالى إذ ردّهم إليها . وهذا هو ظاهر اللّفظ(٢) .

وقولوا حطّه : حطّة على وزن فعلة من الحطّ وهو مصدر كالحطّ . وقيل هو هيئة وحال كالجلسة والقعدة . والحطّ الإزالة . حططت عنه الخراج أزلته عنه . والنّزول حططت(٣) وحطّةٌ بالرّفع قراءة الجمهور على إضمار مبتدأ مسألتنا حطّة(٤) وثمّة آراء أخر . وقد علّق أبو حيّان بقوله(٥) : « والأظهر من التّقادير السّابقة فى إضمار المبتدأ القول الأوّل لأنّ المناسب فى تعليق الغفران عليه هو سؤال حطّ الذّنوب لا شيء من تلك التّقارير الأخر » ويقول القرطبى(٦) : « وقال ابن فارس فى المجمل : حطّة كلمةٌ أُمِرَ بها بنو إسرائيل لو قالوها لحطّت أوزارهم . وقاله الجوهرىّ أيضاً فى الصّحاح . قلت : يحتمل أن يكونوا تعبّدوا بهذا اللّفظ بعينه وهو الظّاهر من الحديث . روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطّة يغفر لكم خطاياكم ، فبدّلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا : حبّةٌ فى شَعْرة . وأخرجه البخارىّ وقال : فبدّلوا وقالوا حطّة حبّة فى شعرة . فى غير الصحيحين :

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٣٨/١ والبحر المحيط ٢٢١/١ وتفسير القرطبى ص ٣٥٠

(٢) البحر المحيط ٢٢١/١ (٣) البحر المحيط ٢١٧/١

(٤) تفسير القرطبى ص ٣٥٠ وانظر تفسير الطبرى ٢٣٩/١ والبحر المحيط ٢٢٢/١

(٥) البحر المحيط ٢٢٢/١ (٦) تفسير القرطبى ص ٣٥٠